منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2213) السنة التاسعة - السبت (6) اب 2011

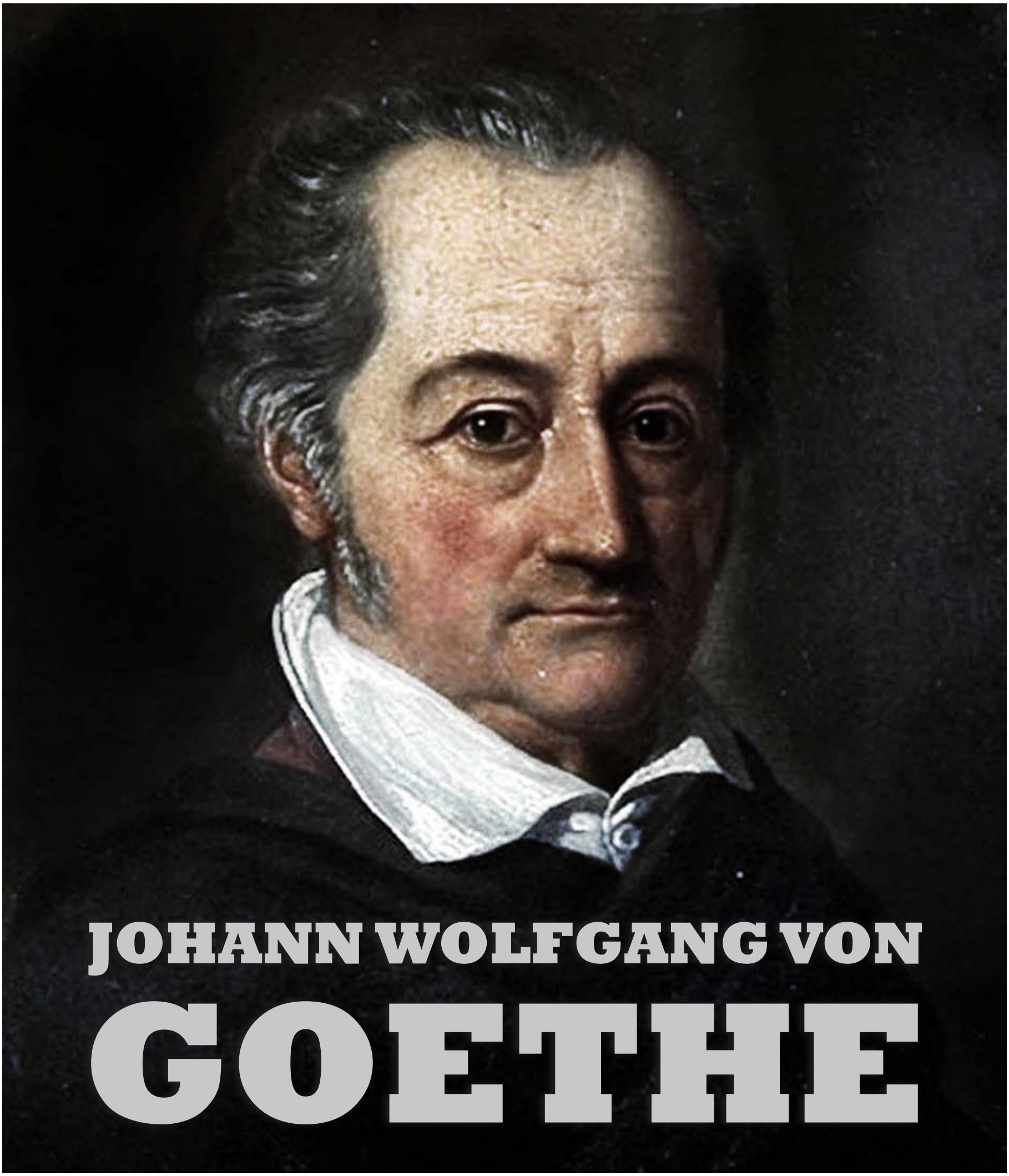

JOHANN WOLFGANG VON GOETHE

JOHANN VON WOLFGANG GOETHE

يوهان فولفغانغ فون غوته

ولد ٢٨ آب ١٧٤٩
فرانكفورت الرومانية .
توفي ٢٢ اذار ١٨٣٢ (عن عمر يناهز ٨٢) فايمار.

يوهان فولفغانغ غوته هو أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، والذي ترك إرثاً أدبيا وثقافياً ضخماً للمكتبة الألمانية والعالمية، وكان له بالغ الأثر في الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية، ومازال التاريخ الأدبي يتذكره بأعماله الخالدة التي مازالت أرفف المكتبات في العالم تقتنيها كواحدة من ثرواتها، وقد تنوع أدب غوته ما بين الرواية والكتابة المسرحية والشعر وأبدع في كل منهم، واهتم بالثقافة والأدب الشرقي واطلع على العديد من الكتب فكان واسع الأفق مقبلاً على العلم، متعمقاً في دراساته. ونظرا للمكانة الأدبية التي مثلها غوته تم إطلاق اسمه على أشهر معهد لنشر الثقافة الألمانية في شتى أنحاء العالم وهو "معهد غوته" والذي يعد المركز الثقافي الوحيد لجمهورية ألمانيا الاتحادية الذي يمتد نشاطه على مستوى العالم، كما نحت له عدد من التماثيل.

النشأة

هذا هو المنزل الذي ولد فيه غوتهولد غوته في الثامن والعشرين من أغسطس عام ١٧٤٩م بمدينة فرانكفورت بألمانيا، كان والداه ميسورين الحال، والده هو يوهان كاسبار غوته، وكان جده يعمل حائكاً أما جدته فكانت تملك فندقاً، وهو الأمر الذي جعل العائلة في سعة من العيش.
عمل والدا غوته جاهدين من أجل أن يحصل ابنهما على قدر وافر من العلم، وكان والده يرجو أن يتبوأ ولده مناصب عالية في الدول، وبالفعل حقق غوته أملهما فتدرج في مراحل التعليم المختلفة حتى درس المحاماة وتخرج من كلية الحقوق، وعلى الرغم من دراسة غوته للحقوق إلا أن ميوله وعشقه كان للأدب فكان متأملاً للأشياء من حوله واصفاً لها في جمل رقيقة معبرة.

الإبحار في فكر غوته

لم يكن غوته مجرد شاعراً عادياً يسجل خواطره وأفكاره من خلال قصائده الشعرية، وكتبه الأدبية، بل مال إلى التبحر في مختلف العلوم، فأنكب دارساً العلوم والفنون المختلفة مثل الرياضة والرسم والشعر والموسيقى والتصوير، كما قام بدراسة النبات والطب والهندسة والحقوق والسياسة.
وعكف على تعلم اللغات وساعده والده في ذلك فدرس كل من اللاتينية، اليونانية، الإيطالية، الفرنسية، الإنجليزية والعبرية، كما سعى غوته نحو التعرف على ثقافات أخرى فتعمق في الأدب الشرقي فأطلع على الأدب الصيني والفارسي والعربي، بالإضافة لتعمقه في الفكر الإسلامي، ولم يكتف غوته في مجمل إطلاعه على الثقافة العربية على الشعر العربي فقط بل أطلع على كتب النحو والصرف متلهفاً وساعياً نحو المعرفة، كل هذه الأمور أهلته لان يكون شاعراً متمكن واسع الثقافة مطلع على العديد من العلوم.

نظرة في حياته

في عام ١٧٥٩ وعندما كان غوته في العاشرة من عمره قام الفرنسيون باحتلال مدينة فرانكفورت، وقام أحد الضباط الفرنسيون باحتلال منزل عائلة غوته، مما ترك اثر بالغ في نفسيته، وفي سن السادسة عشر قام والده بإلحاقه بكلية الحقوق جامعة "ليبسك"، ولم تكن ميول غوته تتوافق كثيراً مع دراسة الحقوق فلم يحقق بها الكثير من النجاح فقد كان الأدب هو عشقه الأول، وعلى الرغم من ذلك أكمل دراسته بها.
وأثناء فترة دراسته بجامعة "ليبسك" جاءت أولى قصص الحب في حياة غوته فأحب فتاه عرفت باسم آنا كاترين شونكويف كانت ابنة رجل يمتلك حانة كان غوته يتردد عليها، وهناك رآها وهام بها حباً حتى انه ذكرها في العديد من قصائده الأدبية في هذه الفترة مطلقاً عليها اسم "آنيت"، ولكن لم تستمر قصة الحب هذه كثيراً فما كادت الفتاة تقابل حبه بحب مثله حتى أنصرف عنها.
وفي جامعة "ليبسك" نظم غوته العديد من القصائد والروايات الأدبية من أهمها المأساة الموسومة "بمزاج المحبين" والتي قام فيها بتوضيح الأسباب التي جعلته يترك محبوبته الأولى، ومأساة "الشركاء في الجريمة" والتي عرض فيها العادات السيئة التي كانت منتشرة في الأسر في ذلك الوقت بمدينة "ليبسك" وغيرها من باقي المدن الألمانية، وفي عام ١٧٦٧م قام بنشر مجموعة من أشعاره بعنوان "آنيت" .
في عام ١٧٦٨م عاد غوته إلى فرانكفورت تاركاً جامعة "ليبسك" قبل أن يتم دراسته بها نظراً لمحنة مرضية مر بها، حيث أصيب بنزيف حاد أضعفه نظراً لقيامه ببذل مجهود شاق في الدراسة، فلزم فراش المرض لفترة كبيرة، وأثناء فترة مرضه هذه قام بالإطلاع على كتب الفلسفة والسحر والتنجيم والكيمياء، وكان لإحدى صديقات والدته أثر كبير في نفسه فقد كانت سيدة متدينة، وجهت تفكير غوته نحو الروحانيات، فأصبح غوته بعد فترة من المتصوفين.

غوته في ستراسبورغ

بعد أن أسترد غوته صحته قام والده بإرساله إلى جامعة "ستراسبورغ" من أجل إكمال تعليمه في الحقوق، وعلى الرغم من أن مدينة ستراسبورغ كانت تحت السيطرة الفرنسية إلا أنها كانت تتمتع بالصبغة الألمانية والتي تشبعت بها روح جوتة وانعكست على أعماله بعد ذلك.
كانت كل مرحلة في حياة غوته لها أثارها وإنجازاتها ففي أثناء تواجده في ستراسبورج قام بجمع المادة اللازمة لكتابة روايته "جوتس فون برليخنجن" هذه الرواية التي حققت الكثير من الضجة عند ظهورها نظراً لكونها خرجت عن الروح السائدة عند الأدباء في هذه الفترة والتي كان الأدب الفرنسي مسيطراً عليها، واعتبرت دائرة المعارف البريطانية رواية غوته بمثابة فتح جديد في عالم الأدب الألماني، وعلى الرغم من هذا رأي عدد من النقاد أن هذه الرواية لم ترتقي إلى مستوى روايات غوته الأخرى مثل "فاوست" و"ولهلم مايستر" وغيرها وان أهميتها تأتي من كونها قد أدخلت فكر وأسلوب جديد على الأدب الألماني السائد في هذه الفترة فقط.
حصل غوته على إجازته في القانون عام ١٧٧١م، وعاد مرة أخرى إلى مسقط رأسه ليمارس مهنة المحاماة، وبعد ذلك انتقل إلي "فتزلار" وهي مقر المحاكم الإمبراطورية ومحكمة الاستئناف العليا، وذلك حتى يقوم بالتمرن على أعمال المحاماة، وأثناء ذلك تعرف غوته على الكثير القضاة ورجال السلطة، وتوطدت صلته بهم.

آلام فرتر

لهذه الرواية قصة مؤثرة في حياة غوته والتي أبدعها عقب تعرضه لمأساة غرامية، ففي "فتزلار" كان الحب الثاني في حياة غوته بانتظاره، فهناك تعرف على فتاة تدعى شارلوت، أحبها غوته كثيراً، ولكنها كانت خطيبة أحد أصدقائه، وتألم في حبه لها، فقام بتخليد هذا الحب في روايته الشهيرة "فرتر" والتي تعد واحدة من أهم روايات غوته وأكثرها انتشاراً، وعبر من خلالها عن تجربته الشخصية من خلال بطل الرواية ولكن البطل أقدم على الانتحار في النهاية، وقد حازت هذه الرواية على إعجاب الشباب وتعاطفوا مع ألم العاشق فرتر.
كانت الفترة الواقعة بين أعوام ١٧٧١ و ١٧٧٥م فترة هامة في تاريخ غوته الأدبي فأنتج بها أشهر رواياته نذكر منها: "جوتس، كلافيجو، آلام فرتر، ستيلا، جوتر، واروين" والعديد من المؤلفات الأدبية الأخرى، مما جعله يرتقي سريعاً بين الأدباء الألمان، وفاقت شهرته وتجاوزت حدود ألمانيا.

غوته والدوق

في عام ١٧٧٤م تعرف غوته علي "كارل أوجست" دوق فيمار بمدينة "كالسر" بمقاطعة بادن، فقام بدعوته لزيارة فيمار وبعد عام تقابلا مرة أخرى في فرانكفورت فدعاه ثانية لزيارة فيمار، وبالفعل لبى غوته الدعوة وذهب إليها في ٧ نوفمبر عام ١٧٧٥م، وقد توطدت علاقة كل من الدوق وغوته فأصبحا صديقين حميمين، وقام بتعيينه في أحد مناصب الدولة، وكانت فيمار على الرغم من كونها دوقية صغيرة فقيرة ومعظم أهلها من الفلاحين، إلا أنها كانت قبلة لرجال الفن والأدب والعلم.
ومما شجع غوته على البقاء في فيمار الدوقة إماليا والدة الدوق، والتي كانت من المهتمين بالأدب والموسيقى، فرحبت بغوته واستضافته، وكان قصر الدوق مركزاً أدبياً يلتقي فيه العديد من العلماء والأدباء والشعراء، وكانت بداية فترة إقامة غوته بفيمار فترة ركود أدبي بالنسبة له فلم يخرج أي مؤلف له في هذه الفترة، ولكنه قال أن هذه الفترة كانت فترة إعداد لإبراز مؤلف جديد.

العمل في حياة غوته

كان منصب غوته الذي قام الدوق بتعينه به يدر عليه مبلغاً مالياً مرتفعاً، فكثر حوله الحاقدين ولكن لم يأبه الدوق بكل هذا وتوطدت علاقته بغوته كثيراً وقام بمنحه منزلاً فخماً على ضفاف أحد الأنهار ليمكث به.
وقد عكف غوته خلال عشر سنوات على دراسة شئون الدولة والتفاني في عمله، وعمل على الاهتمام بالفنون والعلوم المختلفة والارتقاء بها، كما قام بتنظيم مدينة فيمار وتجميلها وتحسينها وإصلاح الحدائق والزراعة بها، وتنظيم النواحي الحربية والمالية وتنفيذ مختلف الأعمال التي تعود بالنفع في النهاية على الدولة، وقد بذل غوته الكثير من الجهد في سبيل ذلك.
ولم تمر هذه الفترة في حياة غوته دون أن يقدم بها أعمال أدبية مميزة فقدم العديد من الروايات والتي قدم بعض منها على مسرح فيمار ، وكانت من ضمن الروايات التي قدمها في هذه الفترة رواية" انتصار العواطف".

في إيطاليا

في عام ١٧٨٦ قام غوته بالسفر إلى إيطاليا ومكث هناك أكثر من عام ونصف، وكانت هذه الرحلة بمثابة فترة راحة واستجمام لغوته الذي انبهر بالسحر والجمال الإيطالي، فتعمق في حضارتها وسحرها وقام بإبداع عدد من أجود وأفضل رواياته التمثيلية مثل "افيجينيا، ايجمونت، ناسو"، وقد اعتبر غوته رحلته لإيطاليا أفضل شيء حدث له في حياته.
عقب عودة غوته إلى فيمار قام الفرنسيون بقيادة بونابرت باحتلالها، وقد كان هناك لقاء بين كل من غوته ونابليون وقد ترك غوته أثر طيب في نابليون الذي أبدى إعجابه الشديد بشخصيته وقال عنه عقب انصرافه "هذا إنسان"، ومن الجانب الأخر تعاطف غوته مع نابليون عندما بدأ نفوذه في الاضمحلال في أواخر عهده عام ١٨١٣م، مما جعل البعض يشكك في وطنيته.

غوته وشيلر

تمثل غوته و شيلر،في مدينة فايمارمن الشخصيات التي أثرت في حياة غوته

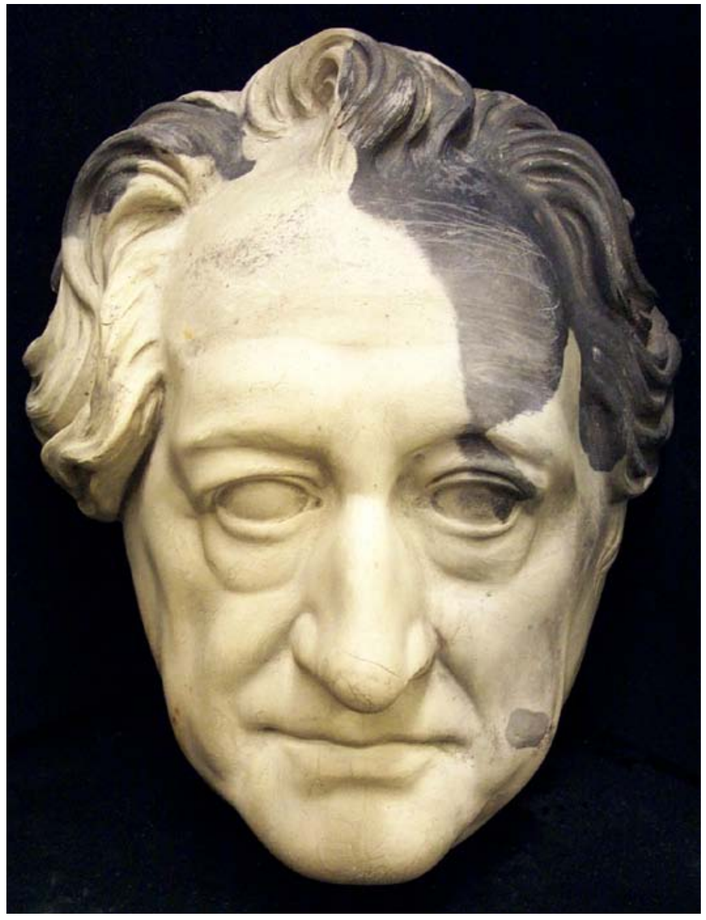

من أعماله

آلام الشاب فيرتر ١٧٧٤ (رواية في شكل رسائل)
المتواطئون ١٧٨٧ (مسرحية هزلية)
جوتس فون برليشنجن ذو اليد الحديدية ١٧٧٣ (مسرحية)
بروميثيوس ١٧٧٤ (قصائد)
كلافيجو ١٧٧٤ (مسرحية مأساوية)
إيجمونت ١٧٧٥ (مسرحية مأساوية)
شتيلا ١٧٧٦ (مسرحية)
إفيجينا في تاورس ١٧٧٩ (مسرحية)
توركواتو تاسو ١٧٨٠ (مسرحية)
فاوست (ملحمة شعرية من جزءين)
من حياتي..الشعر والحقيقة ١٨١١/ ١٨٣١ (سيرة ذاتية)
الرحلة الإيطالية ١٨١٦ (سيرة ذاتية عن رحلته في إيطاليا)
المرثيات الرومانية ١٧٨٨/ ١٧٩٠ (قصائد)

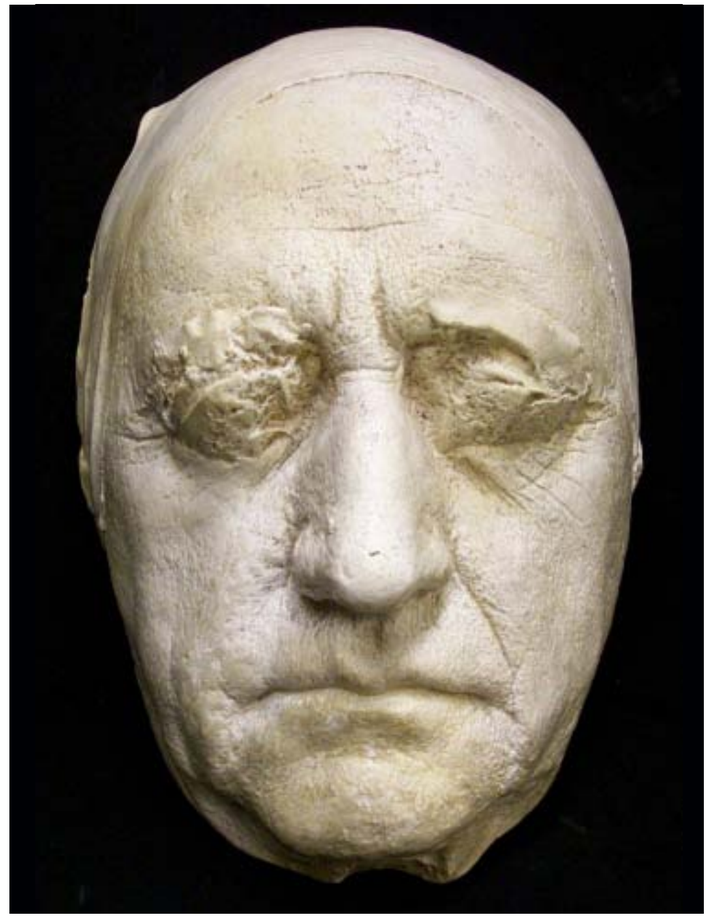

الشاعر الألماني والكاتب المسرحي الكبير "شيلر" والذي ارتبط مع غوته بصداقة قوية، ترفع كل منهم بها على المنافسات والأحقاد التي قد تنشأ بين الشعراء والأدباء الكبار، وعلى الرغم من محاولات البعض للإيقاع بينهما إلا أن هذا لم يحدث وظل الإثنان في علاقة وطيدة حتى جاءت وفاة "شيلر" عام ١٨٠٥م، فنعاه غوته وكتب إلى أحد أصدقائه يقول " إنني قد فقدت نصف حياتي" وهي الجملة التي تعبر عن المكانة التي كان يحتلها شيلر في حياة غوته، كما قال شيلر أن صداقته لغوته أهم حدث في حياته.

اتجاهه الأدبي

كان غوته يميل في اتجاهه الأدبي إلى منهج "العاصفة والتيار" وكان هذا هو التيار السائد في هذا العصر والذي وقف في مواجهة تيار آخر عرف بـ "عصر التنوير" أو عصر الدليل المادي، هذا التيار الذي كان يعمل العقل في كل النواحي، ولا يؤمن بوجود أي شيء إلا إذا كان هناك دليل مادي على وجوده، بينما كان منهج العاصفة والتيار منهج متجدد مفعم بروح الشباب رافضا وضع أي قيود على المشاعر والأحاسيس، مؤمنا بحرية التعبير.

ثم ما لبث غوته في مرحلة أخرى من حياته أن تحول إلى "الكلاسيكية" والتي تسير على نهج الحضارة الرومانية اليونانية القديمة.

مؤلفاته

تنوعت مؤلفات غوته بين الرواية والقصيدة والمسرحية نذكر من مؤلفاته: آلام الشاب فرتر، من المسرحيات نذكر نزوة عاشق، المتواطئون، جوتس فون برليخنجن ذو اليد الحديدية، كلافيجو، ايجمونت، شتيلا، إفيجينا في تاورس، توركواتو تاسو، ومن قصائده بروميتيوس، فاوست "ملحمة شعرية من جزأين"، المرثيات الرومانية، وسيرة ذاتية بعنوان من حياتي..الشعر والحقيقة، الرحلة الإيطالية، الأنساب المختارة كما قدم واحدة من أروع أعماله وهي "الديوان الغربي والشرقي" والذي ظهر فيه تأثره بالفكر العربي والفارسي والإسلامي، ولعل غوته هو أول شاعر أوروبي يقوم بتأليف ديوان عن الغرب والشرق مجسداً قيم التسامح والتفاهم بين الحضارتين، هذا بالإضافة للعديد من المؤلفات القيمة الأخرى.

علاقته بالإسلام

عرف غوته باحترامه وتقديره للإسلام كدين يحمل الكثير من القيم العظيمة، وكان من المهتمين بالإسلام والقرآن الكريم، وبسيرة الرسول "عليه الصلاة والسلام"، فأهتم بالإطلاع على المؤلفات التي صدرت عن الإسلام والشرق، والتي نذكر منها الترجمة الألمانية للقرآن الكريم، المعجم التاريخي، المكتبة الشرقية، الديانة المحمدية، حياة محمد، كنوز الشرق كل هذه الكتب كانت لمستشرقين ومفكرين أجانب وشكلت إحدى المراحل الهامة لغوته للتعرف علي الإسلام ورسوله.

وكان لـ "هيردر" الفيلسوف الألماني العظيم تأثير بالغ على فكر غوته حيث كان أول من أرشده للإطلاع على الشعر العربي والقرآن الكريم، وكان هيردر فيلسوف ألماني ذا تأثير كبير على الحضارة الألمانية، وفيلسوف اللغة والتي نظر لها على أنها أساس هام لاحترام الفروق الثقافية بين الحضارات، كما كان من أكبر الأدباء المنصفين للإسلام وهو ما أوضحه من خلال كتابه "أفكار حول فلسفة تاريخ الإنسان" وقام فيه بالإطراء على شخص الرسول الكريم "محمد" صلى الله عليه وسلم، كما أوضح إعجابه بتعاليم الدين الإسلامي.

وقد أنعكس فكر هيردر على غوته فأهتم غوته بالشعر والقيم العربية المتمثلة في العزة والكرامة ومعاني الشرف والتي كان يستشفها من خلال الملاحم والوقائع الشعرية، فأطلع على دواوين السعدي، وحافظ الشيرازي، والفردوسي.

وقد بدأت علاقة غوته بالقرآن الكريم من خلال لقائه مع هيردر بمدينة ستراسبورج عام ١٧٧٠م، حيث قام بالإطلاع على نسخ مترجمة من القرآن، وقد أعجب به غوته كثيراً وتمعن في معانيه ومفرداته، فجاءت كتاباته متأثرة بالآيات القرآنية، كما قام باقتباس بعض منها وأوردها في أشعاره، وقام بوصف القرآن بأنه "كتاب الكتب".

ومما قالته "كاترينا مومزن" أستاذة الأدب الاجتماعي عنه "إن غوته أعجب بالإسلام ولفت نظره مبدأ التوحيد .. تلك العقيدة التي تدعو إلى الانتقاد لله الواحد، والدعوة إلى تحرر الإنسان من كل صنوف العبودية الدنيوية"

إضافة لذلك أطلع غوته على السيرة النبوية، وكان معجباً بشخصية الرسول نظرا لما قام به من تأسيس الفكر والدين الإسلامي، وانه لم يقصر حياته على مجرد بث التعاليم الدينية، وانه استخدم في توصيل رسالته ودعوته وسائل كفاح دنيوية.

وقد ظهر إعجابه الشديد بالدين الإسلامي وبالرسول الكريم من خلال أشعاره، وأعماله الأدبية والتي نذكر منها "تراجيديا محمد" هذا الكتاب الذي أنقسم إلى فصلين الأول تحدث فيه عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، أما الفصل الثاني فقام بتصوير معاناة الرسول أثناء تبليغه الرسالة وما قساه من المشركين خلال ذلك.

كما اختص غوته الرسول محمد "صلى الله عليه وسلم" بقصيدة مدح طويلة، مشبهة بالنهر العظيم الذي يجر معه الجداول والسواقي في طريقه إلى البحر، كما قام بكتابة مسرحية أيضا عن الرسول ولكنها لم تكتمل نظراً لوفاة غوته، وقد وجد بعض المخطوطات لهذه المسرحية والتي عمد فيها إلى التأكيد على أن محمد صلى الله عليه وسلم، جاء بأفكار جديدة لنشر الإسلام وروح المساواة والإخاء في العالم.

ومما قاله في الإسلام في ديوانه الشعري الديوان الشرقي " إذا كان الإسلام معناه أن نسلم أمرنا لله، فعلى الإسلام نعيش ونموت جميعاً".

اللغة العربية في حياة غوته

مما قاله غوته في وصفه للغة العربية" ربما لم يحدث في أي لغة هذا القدر من الانسجام بين الروح والكلمة والخط مثلما حدث في اللغة العربية ، وانه تناسق غريب في ظل جسد واحد"، وقد عكف غوته على دراسة الشريعة الإسلامية دراسة متعمقة، واطلع على الأشعار والملاحم العربية وتأثر بعدد من الشعراء مثل المتنبي، وقام بإدراج بعض من ملامح أشعاره في روايته "فاوست"، كما تأثر بأبي تمام، والمعلقات فقام بترجمة عدد منها إلى اللغة الألمانية عام ١٧٨٣م بمساعدة معلمه "هيردر"، وقرأ لفحول الشعراء مثل أمرؤ القيس، طرفة بن العبد، عنترة بن شداد، زهير بن أبي سلمى وغيرهم، وكانت للأشعار والمفردات العربية تأثير بالغ على أشعار وأدب غوته.

يوسف فون هامر

شيلر

غـــوتـــــه.. عاشق الشـرق والنساء

توزعت حياته الحافلة بين كتاباته الادبية والفكرية وابحاثه العلمية في الكيمياء والطبيعة والفلسفة الى جانب أنميته الاجتماعية الارستقراطية والمراكز السياسية التي شغلها. وقد أتيح له ان يرتبط بشبكة علاقات مع ابرز مشاهير عصره بدءا بمواطنه الشاعر الشهير شيلر والاديب النمساوي يوسف فون هامر- يوركشتال، موتزارت الى امير فايمار كارل الذي كان وراء المراكز الرفيعة التي شغلها في حكمه. ان عصر غوته هو عصر التأسيس الثقافي والفكري الذي تجاوز حدود ألمانيا وأوربا ليصبح أحد أعمدة التراث الانساني الرفيع. لقد جاءت هذه الاحتفالية لتقول ان غوته بعد مائتين وخمسين عاما على ولادته مايزال مقروءا ومرغوبا من الادباء والمثقفين كما من الشباب وطلبة المدارس.

وديـــع العـبـيـدي

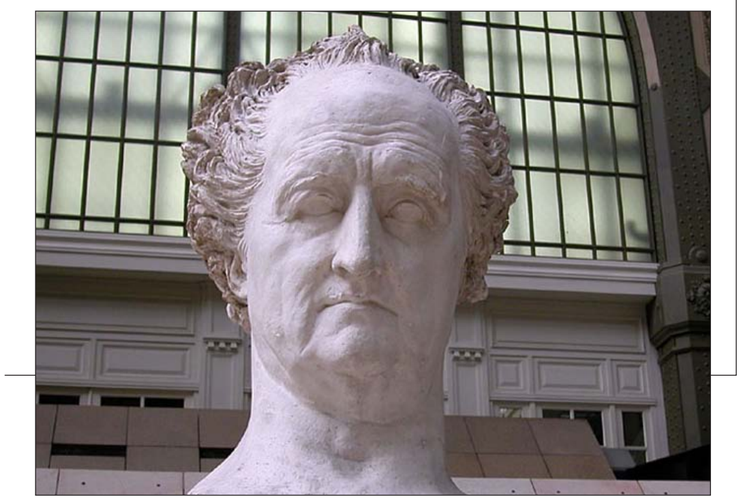

وقد ولد يوهان فولفانغ فون غوته في ٢٨/ ٨/ ١٧٤٩ في فرانكفورت في عائلة ارستقراطية فنشأ متنعماً متفرغاً للبحث والدرس والادب. يقول عن ولادته في الثامن والعشرين من ظهيرة آب، مع دقات الكنيسة المعلنة الثانية عشرة، في فرانكفورت قرب ماين، جئت للعالم.) . كان والده يوهان كاسبار ووالدته كاترينا اليزابيث. ويعتزّ بكونه من سلالة القياصرة.

في عام ١٧٦٢ وضع أول مخطوطة شعرية بخط يده. وفي العام التالي عندما اقيمت أول حفلة موسيقية في فرانكفورت، للطفل فولفانغ أماديويس موتزارت (١٧٥٦/١/٢٧-١٧٩١/١٢/٥) الذي كان في السابعة يومذاك، كانت مناسبة للتعارف بين الاثنين ونواة لعلاقة مستمرة مبنية على الودّ والاحترام. في عام ١٧٦٥ بدأ دراسته في لايبزغ وهناك أنجز مجموعته الشعرية (انيتا) بعد عامين وبدأ عمله الدرامي(هوى العاشقين). ١٧٧٠ يسجل في جامعة ستراسبورغ ليحصل على اجازة المحاماة بعد عام. في١٧٧٤ يتعرف على امير فايمار كارل أوغست والذي يدعوه للزيارة في العام التالي . ١٧٧٥ يقوم بسفرة الى سويسرا وبعد عام يتقلد مركزاً رفيعاً في الدولة. ١٧٧٩ يصبح مديراً للجنة الحرب وبناء الطرق، ويقوم بسفرة ثانية الى سويسرا برفقة الامير كارل. ١٧٨٠ ينضمّ الى حركة البنائين الاحرار(الماسونية). في عام ١٨٨٦ يقوم بسفرة خاصة الى ايطاليا. وبعد عامين يعود الى فايمار ويلتقي مواطنه الشاعر الشهير شيلر. في عام ١٧٩٠ ينجز عمله الكبير(فاوست). بعد عامين يرافق الامير كارل الى فرنسا للمشاركة في الحركة الصليبية. ١٧٩٥ ينتهي من كتابه (سنوات وليم مايسترز التعليمية) في ستة أجزاء، بالتعاون مع شيلر. ١٧٩٧ يصاب بمرض في الكلى. ويتوفى صديقه الشاعر شيلر في الخامس من الشهر الخامس.

في عام ١٨٠٦ الجيش الفرنسي يدخل فايمار. فينتقل للاقامة في كارل باد، ويتزوج من نسياتا. في عام ١٨٠٨ يلتقي مع نابليون في فايمار. ١٨١١ ينتهي من الجزء الاول من (الشعر والحقيقة) ثم يكمل الاجزاء الاخرى على التوالي بين ١٨١٢-١٨١٤. وفي الاعوام ١٨١٤ حتى ١٨٢٠ ينجز عمله الشهير (ديوان الشرق والغرب). في العام ١٨١٥ تتم أعادة تنظيم ألمانيا في مقاطعات كبيرة: ساخسن، فايمار، ايسن باخ. ١٨١٦ يسجل وقائع رحلته (السفرة الايطالية) الجزء الاول. وفي العام ١٨٢٣ تظهر عليه أعراض الالتهاب في أحد تجاويف القلب والذي لا يبلّ منه. بين الاعوام ١٨٢٧-١٧٣٠ تصدر أعماله الكاملة في اربعين مجلداً. ويشهد العام ١٨٢٩ أول عرض مسرحي عن أعماله: فاوست، سنوات وليم ماسترز، السفرة الايطالية/ج ٢. ١٨٣٠ يموت ابنه أوغست متأثراً بمرض الرئة. ١٨٣١ ينتهي من الجزء الثاني من (فاوست)، والجزء السابع من كتاب (الشعر والحقيقة). في السادس عشر من آذار عام ١٨٣٢ تزداد عليه وطأة المرض ويفارق الحياة بعد ستة أيام. وفي السادس والعشرين من الشهر نفسه تقام مراسيم الدفن في فايمار. في عام ١٨٤٢ يعاد طبع أعماله في عشرين مجلداً.

أما عشق غوته للشرق، فقد ارتبط باطلاعه على ديوان حافظ الشيرازي والذي قام يوسف فون هامر- يوركشتال (١٧٧٤-١٨٦٥) المولود في غراتس/ شرق النمسا، بترجمته للألمانية، فكان حافزاً لدراسة الشرق والتاريخ العثماني في القرن ١٨/. وقد استثار الكتاب غوته فكانت هوامشه على الديوان، كتاباً جديداً مثل رحلة غوته الى بلاد الغد، لقاءات الشرق والغرب، والذي صدرعام ١٨١٩ بعنوان (ديوان الشرق والغرب) فاعتبر أحد أبرز مؤلفاته التي تبرز جوانب ثقافته ومصادر مكوناته الفكرية. والى جانب ذلك كان لغوته ولعه في ديوان الشعر العربي القديم و(ألف ليلة وليلة) والقرآن الكريم. فكانت أجواء الشرق ورموزه واضحة في كتاباته وكتابات معاصريه، الامر الذي عزز تأليفه للديوان.

غوته والمـرأة:

لم تنفصل نظرة غوته للمرأة عن نظرة التقاليد الارستقراطية المتوارثة في زمانه، والقائمة على أساس البذخ والتمتع بالحياة الى أبعد حدّ ممكن. فالمرأة لديه ترتبط بالمتعة واللذة الآنية وربما تعدّت ذلك الى دور الأنيس أو البلسم الذي يداوي به جراح أيامه، شيئاً من هوى الشباب وأيام الدراسة والعزوبة، ولكنها لا تتعدى ذلك الى مفهوم الحب بدلالاته المادية او العذرية اوالسامية والصوفية. ولم يكن للتراث الشرقي أثره في هذا المجال، مع استثناء أدب ألف ليلة وليلة الذي يترجم لمرحلة الترف المعيشي في صدر الدولة العباسية، فعجت بالصور الحسية والمادية وانتشرت أسواق الرقيق والجواري والقيان والنخاسة، وصار الامراء والمترفون ومن ملكت أيمانهم يتنافسون في المزاودة على هذه وتلك ويبلغ التنابز والتفاخر ان يشتريها من مولاها اذا رفض هديتها له. وفي هذه النقطة من التأريخ العباسي التقى الشرق والغرب في صورة الترف الارستقراطي، وما يداني المفهوم المادي للحب (اللذة الحسّية) وليس (التحسّس الانساني) ، وهو ما يجعل الاوربيين يهتمون بقصص الف ليلة وليلة وليس بالتراث العربي او الشرقي ككل. ومن هذا المنطلق لم تكن المرأة لدى غوته غير فاكهة يستلذ بها لمرة واحدة ثم يلقيها جانباً ليجد غيرها. وهو ما أتاحته له تفاصيل حياته وألمعيته الاجتماعية والسياسية والادبية وأسفاره الى الجنوب. ولعل صيته الادبي وأصله النبيل ما جعل النساء يقبلن عليه ويتقبلن مراسلاته رغم تقدمه في السن وتمكن المرض منه.

وثمة على الاقل ثلاثة قصائد في (ديوان الشرق والغرب) موجهة للشاعرة النمساوية ماريانا فون فيلمر. كانت ماريانا يومذاك، تصغر الشاعر البالغ الستين من العمر، بثلاثين عاماً. أطلقت عليه عاشق الشرق حيث تقول في قصيدة لها:

ارخ بجناحيك المبتلين، ايها الغرب
كم أحسّك..
لأنك تستطيع ان تنقل ما أعانيه من ألم البعاد
تتنهد ماريانا، فيجيبها غوته في رباعيته:
أتذكر أيضاً، الوجه الحبيب،
صباحاً ومساء
هي تفكر بي، وأنا أفكر بها
وكلانا لا ينفعنا ذلك بشيء.
ومن النساء اللائي مررن في حياة غوته أو مرّ في حياتهن:

تشارلوت يوف

وهي متزوجة من ج. كيستنر منذ ١٧٧٣، تعرف اليهما غوته في تموز ١٧٧٢، فوقعت من نفسه موقعاً حسناً، فتركت زوجها في أيلول لتتفرغ للشاعر.

تشارلوت فون شتاين

المولودة عام ١٧٤٢ في ايسنباخ. متزوجة من يوسيس فون شتاين. وكانت لها مكانة بارزة في مجتمع فايمار ومن ثمة في حياة غوته. ولكنها كانت تعاني من الوحشة والفراغ في حياتها الزوجية، فارتبطت بعلاقة حميمة مع غوته عن طريق المراسلة. توفيت في فايمار قبل خمس سنوات من وفاة غوته. وقبل موتها بعثت تطلب رسائلها منه فاحرقتها جميعاً. وقد اعتبرت سفرته الى ايطاليا عام ١٨٨٦بمثابة اهانة لها، فقررت قطع علاقتها به. وبعد عودته بدأ علاقة جديدة مع كريستينا.

ماريانا فون فيلمر

من مواليد لنز في ١٧٨٤/١١/٢٠. بعد شهر من التعارف تزوجها غوته في ١٨١٤/٩/٢٧، وأثارها واضحة في ديوانه الشرقي. حيث صور نفسه باسم (حاتم) وأعطاها صورة (زليخة). وقد توفيت في فرانكفورت عام ١٨٦٠.

كرسيانا فولبيوس

من مواليد ١٧٦٥. التقاها أول مرة في ١٧٨٨ /٧/١٢ وكانت قد رجت كبار طاقمه ايجاد عمل لأخيها كريستيان لإعانة العائلة التي تعاني من صعوبة العيش. تركت عملها في مصنع الزهور مسافرة الى فايمار لتعمل مديرة منزل ثم عشيقة غوته وقد انجبت طفلاً منه عام ١٧٨٩. ورغم مظاهر الشرعية على وجودها الا ان مجتمع فايمار تنكر لها وقطع ذكرها حتى وفاتها في ١٨١٦/٦/٦.

أولريكا فون ليفتسوف

من مواليد لايبزغ عام ١٨٠٤. تعرفت الى غوته اثناء قضاء فترة نقاهة في منتجع صيفي بين ٢١-١٨٢٣. وكان الشاعر في الرابعة والسبعين من عمره. وقد انعكس أثرها في مسرحيته (تريلوجيا المكابدة).

http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الوفاة

جاءت وفاة غوته في الثاني والعشرين من اذار ١٨٣٢م بفيمار، وهو في الثانية والثمانين من عمره، وذلك بعد أن أثرى المكتبة الألمانية والعالمية بالعديد من المؤلفات الأدبية القيمة، وقد كان لغوته أثر كبير في الحياة الأدبية في عصره الأمر الذي أهله لأن يظل التاريخ يردد اسمه كواحد من أعظم الأدباء.

GOETHE ومسرحيته FAUSTUS

الشيطان في الأدب الألماني

أسامة أمين

بدأ أعظم الشعراء الألمان يوهان فولفجانغ فون جوته أهم أعماله (فاوست) وهو شاب في الرابعة والعشرين من عمره، وانتهى منه وهو كهل في الثانية والثمانين، وضع فيه عصارة فكره، وهو الفيلسوف ورجل الدولة وعالم الفيزياء، وجعل العمل يدور حول الشيطان والإنسان، وعما إذا كان الشيطان قادرا على أن يجلب السعادة للإنسان المتعطش إلى المعرفة والحرية، وعلى أن يخلط الحق والباطل في قلب هذا الإنسان. جوته كان له فلسفته الخاصة في علاقته بالأديان، كان يقتبس منها ما يتفق مع نظرته إلى الحياة، ولذلك فإن مسرحية (فاوست)، التي يعتبرها البعض أرفع الأعمال الأدبية مكانة في اللغة الألمانية، ليست انعكاسًا لمفاهيم دينية سائدة في عصره، رغم أنها تعالج قضية دينية بحتة، متعلقة بالإله والشيطان والإنسان، ورغم أنه جعل الغلبة للإيمان، على عكس أدباء عرب حصلوا على جوائز عالمية، لأنهم جعلوا الغلبة للعلم على الدين في أعمالهم التي ضمنوها خلاصة فلسفتهم في الحياة. خلاصة القول إن جوته كان (إنسانا) فحسب، كما أمر بالكتابة على شاهد قبره، (إنك كنت بحق إنسانا)، وهو الذي قال في (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي)، «لأنني كنت إنسانا، فهذا يعني أنني كنت من المجاهدين»

حوار في السماء

تبدأ مسرحية «فاوست» التي جرى عرضها لأول مرة بتاريخ ١٨٥٤/١/١٩م، بحوار في السماء، حيث يمجد المائكة رفائيل وجبريل وميخائيل الله، لقدرته على القيام بالمعجزات، التي لا يقدر عليها سواه، وأنه زرع الخير في الإنسان، إلا أن الشيطان (مفيستو) الذي كان موجودًا بين الملائكة، يخالفهم في الرأي، ويشير إلى الشكوى المستمرة من البشر، فيتدخل الرب متحدثًا عن الدكتور فاوست، الذي يسميه الرب (عبدي)، فيقول الشيطان إنه قادر على أن يصرف فاوست عن عبادة الله، فيقول الله لإبليس إنه سيتيح له الفرصة لمحاولة إغراء فاوست طالما كان على الأرض فقط، ويعترف الشيطان عندئذ والإلم يعتصره بأن (الإنسان الصالح يبقى مدركًا للحلال والحرام، حتى عندما يرتكب أكبر الكبائر)، ويترك الرب للشيطان أن يحاول غواية فاوست، ويطلق على الشيطان اسم (الخبيث)، ويقول الأديب إن الله لا يكره إبليس ولا بقية الشياطين، فهو يعلم أن الإنسان يحتاج إلى بعض المحفزات والاختبارات، حتى يثبت صدق إيمانه.

ويرى النقاد أن جوته قد تأثر في هذه المقدمة بما ورد في العهد القديم، كتاب أيوب، الإصحاح الثاني (فقال الرب للشيطان: هل جعلت قلبك على عبدي أيوب، لأنه ليس مثله في الأرض، رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر).

ولكن معرفته المؤكدة بالقرآن، تجعل تأثره بالآيات القرآنية التالية من سورة الإسراء غير مستبعد.

عقد مع الشيطان

يرى المشاهد فاوست وهو في غرفة الدراسة في الليل البهيم متمثلًا عن جدوى الحياة، ويرى أن العلوم التقليدية وهي الفلسفة، والحقوق، والطب واللاهوت، لم تعد قادرة على إعطائه شيئًا، ولم يعد يجد في غير السحر، ما يجعله قادرًا على الولوج في أسرار الكون، ويستدعي بالسحر عفريتا رَمْزًا، ولكنه لا يشفي غليله، فيفكر فاوست في التخلص من كل ذلك الهم، ويضع السم في الفنجان لينتحر، وأثناء ذلك تدق أجراس الكنائس، وأغان تذكر بمعجزة قيام السيد المسيح، فيرجع عن محاولة الانتحار، ويخرج إلى الطريق، حيث يحييه كل من يلقاه باحترام وإجلال لأنه في شبابه استطاع أن يتوصل إلى علاج لوباء الطاعون، الذي كاد يقضي على المدينة بأكملها، ثم يرى فاوست الشمس وهي تغرب، فيعود من جديد للشوق إلى ما وراء الطبيعة، ويقول لنفسه إن هناك روحين في صدره، كل منهما تريد الانفصال عن الأخرى.

وفي طريق العودة إلى غرفته، يتبعه كلب أسود مثير للريبة، وفي الغرفة يسعى فاوست لترجمة بداية إنجيل يوحنا، إلى اللغة الألمانية التي ينوب عشقا فيها، ولكنه يتوقف عند الكلمة اليونانية Logos التي تعني الكلمة، ولكنه لا يجدها مناسبة، فيستبدل بها كلمة الفعل، وبذلك يترجم بداية الإنجيل بعبارة (في البدء كان الفعل)، بدلًا من الترجمة المعتادة (في البدء كانت الكلمة). ثم يلاحظ أن الكلب الذي دخل وراءه الغرفة، بدأ يعبث بمحتوياتها، ثم يعترف هذا الكلب لفاوست بحقيقة هويته، وأنه الشيطان، فيشكو له فاوست من الهم الذي يتملكه من جراء الوجود في هذا الكون، ويتوصل الشيطان إلى اتفاق مع فاوست، وقعه الأخير بنقطة من دمه، وينص هذا الاتفاق على أن يكون الشيطان في خدمة فاوست، يحقق له كل رغباته، ويمنحه قوة خارقة لقوانين الطبيعة، على أن تصبح روح فاوست لحظة وفاته ملكًا للشيطان، وعلى أن يخدمه فاوست في الأخرة كما خدمه الشيطان في الدنيا، ولكن بشرط أن يصل فاوست إلى اللحظة التي يشعر فيها بروعة لا حد لها، ويتمنى أن تتوقف عقارب الساعة، حتى لا تنتهي متعته بهذه اللحظة، وفي المقابل تصبح روحه ملكًا للشيطان.

تبدأ رحلة الاثنين في حانة في مدينة لايبزغ، ليستمتع فاوست باحتساء الخمر، ثم يتوجها إلى مطبخ الساحرات، وهناك يشاهد فاوست في مرآة، صورة لامرأة يقع عشقها في قلبه فورًا، وحتى يثير هو الآخر إعجابها تعطيه الساحرة شرابا سحريًا، يجعل منه وهو الكهل الطاعن في السن، فتى ولهانًا في ريعان الشباب، لا تستطيع أي حسناء أن تقاومه، ولكن الفتاة التي رآها في المرآة تختفي عن ناظريه.

فيجلس على قارعة الطريق، وعندها يشاهد فتاة أخرى اسمها (جريتشن)، عائدة من الكنيسة بعد أن أدت فريضة الاعتراف بما اقترفته من ذنوب للكاهن، لأنه لا يمكن مغفرة الذنوب، دون الاعتراف، فأراد أن تكون من نصيبه، فعرض عليها باندفاع كبير أن تبادله مشاعره، ولكنها تأبى، فيطلب فاوست من الشيطان أن يجمعه بها، ولكن الشيطان يتحجج بطهرها وعفافها، فيهدده فاوست بفسخ العقد بينهما، فيكيد الشيطان ليوقعها في حبائله، حتى يرضي شهوات فاوست، فوضع لها صندوقا من التحف والحلي، أخذ بلبها لما رأته، ولكن أمها اشتمت فيه رائحة الحرام، فاستدعت القسيس لأخذ رأيه، فصارده لحساب الكنيسة، قائلًا إن الكنيسة «وحدها التي تستطيع أن تهضم المال الحرام».

ولما عجز الشيطان عن التأثير على جريتشن مباشرة، لجأ إلى جارتها القوّادة الشريرة التي تقوم بمهمة الجمع بين فاوست وجريتشن، وتعترف الفتاة العذراء البريئة لأول مرة بالحب لفاوست، ولكنها ترى الشيطان، وتعرف أنه يحيك الدسائس بينها وبين حبيبها فاوست الذي لا تعرف مدى التزامه بالدين، حتى بعد أن قال لها في حماس إنه عميق الإيمان بدينه، ويغويها الشيطان لتعطي لأمها شرابًا منومًا لتغط في سبات عميق، ثم يدخل فاوست إلى مخدعها، وتقع في المحظور.

يريد أخوها فالانتين، أن يثأر لها، فيأمر فاوست بأن ينازله بسيفه، فيتدخل الشيطان، ويشل يد أخيها، فيقتله فاوست، وتتحول حياة جريتشن إلى جحيم، تموت أمها من جرعة المنوم التي أعطاها الشيطان إياها، ويموت أخوها على يد فاوست، وتحمل جريتشن سفاحًا، فما كادت تلد حتى أغرقت المولود خشية الفضيحة، وتسلم نفسها للمحكمة، وينتهي بها المآل إلى السجن، حيث تفقد عقلها هناك، ولم تفلح محاولات الشيطان لإلهاء فاوست عما حصل لجريتشن، فيرى فاوست كيف تجمعت آلام البشرية كلها في شخص هذا الكائن الذي كان بديعًا، قبل أن يعرفه، ويدرك ما يحدث للإنسان الذي ينقاد وراء الشيطان، وعجز فاوست عن إخراجها من السجن، ولكنها عندما رأت الشيطان، أدركت من كان وراء كل هذه التعاسة، فمدت أيديها متضرعة لله، حتى يغفر لها ذنوبها، وفي مشهد مؤثر للغاية، يقول الشيطان، إنها قد انتهت وضاعت إلى الأبد (كتب لها الهلاك)، فيأتي صوت من السماء يقول، بل إن ذنوبها قد غفرت (كتبت لها النجاة)، ويكون الشيطان قد خسر هذه المعركة، برغم كل ما فعلته، لأن هذه الفتاة، بقيت رغم كل ما اقترفته من آثام مدركة للصواب والخطأ، ولم تتردد في طلب الرحمة من ربها، الذي بقي ملاذها الوحيد، فغفر لها.

الجزء الثاني من فاوست

ومع أن الجزء الثاني من المسرحية، ليس مترابطا مثل الجزء الأول، لكنه يتضمن الكثير من المعارف التي جمعها جوته في حياته، وفيه يكون فاوست مع خادمه الشيطان، وهما في بلاط القيصر، حيث ينجح فاوست في حل الضائقة المالية للبلاد، ويشارك مع مفيستو في الأعياد، ويستحضر فاوست روح الفتاة البديعة التي رآها في المرآة في الجزء الأول، وتقبل أن ترافقه إلى قصره، بعد أن أصبح أميرًا للبلاد، ويرزقان بمولود بديع اسمه أوريفوريون، أراد أن يساعد والديه بعد أن اشتد عوده، فدخل الحرب معهما، وتخيل أنه يستطيع الطيران، فقفز من فوق الجبل، فوقع على الأرض ومات، وبموته تختفي الأم أيضا، مما يوضح أن هذه المرأة وهذه الزيجة كانت كلها وهمًا، فأراد فاوست أن يقوم بعمل حقيقي، ينجزه بكده وتعبه، دون مساعدة من الشيطان، فيسعى لإيجاد أماكن لسكن الكثير من البشر، عن طريق تجفيف مياه البحر، وكسب أراض جديدة، وفي النهاية يقول إنه لو استطاع أن يوفر لكل هؤلاء الناس السكن في الأرض الواقعة بين الهضبة وبين البحر، فعندها يمكنه أن يقول أيتها اللحظة ما أبدعك، ليبتك تبقين ولا تمرين. ويتحقق الكثير من أحلامه، ويموت في هذه اللحظة، ويبدو كما لو كان الشيطان هو الذي ربح الرهان، وأصبحت روح فاوست ملكا له، ولكن تنزل الملائكة من السماء، وتحيط بفاوست، لتحمل أغلى ما فيه، وهي روحه، ويقولون إن من قضى العمر مجاهدًا، فإنه يحظى بالخلاص، وينال المغفرة والرحمة.

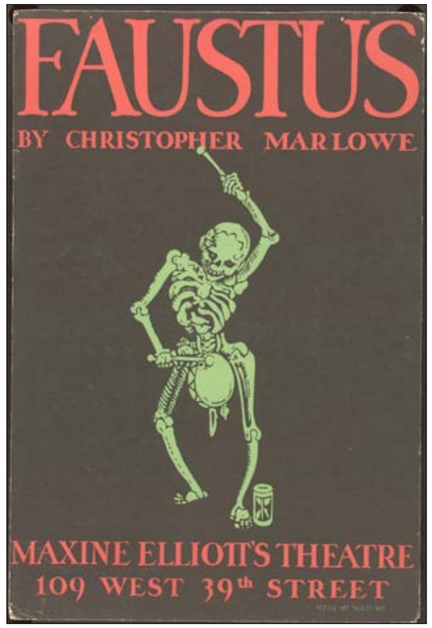

الشيطان الألماني في الأدب العربي

وقد شقت مسرحية فاوست طريقها إلى الأدب العربي، فقد جرى ترجمتها في عام ١٩٢٩م على يد محمد عوض محمد، وفي عام ١٩٥٩م على يد عبدالحليم كرارة، وفي عام ١٩٧٥م على يد مصطفى ماهر. كما اقتبس منها آخرون لكتابة أعمال أدبية عربية متأثرة بدرجات متفاوتة بهذا النص، كما فعل كل من توفيق الحكيم في عمله المنشور عام ١٩٣٨ باسم (عهد الشيطان)، وعلي أحمد باكثير (فاوست الجديد) ١٩٦٧م، ومحمد فريد أبو حديد في كتابه (عبد الشيطان) الصادر عام ١٩٢٩م، وكتاب محمود تيمور (أشطر من إبليس)، وفتحي رضوان (دموع إبليس)، ومحمود طاهر لاشين في قصته القصيرة (ميفستوفوليس). كما كتب آخرون دراسات أو مقالات تتناول هذا العمل، مثل عباس محمود العقاد في كتابه (تذكار جيتي) الذي صدر في بيروت عام ١٩٨١م، وطه حسين في مقدمتة لترجمة فاوست لمحمد عوض محمد عام ١٩٣٠م، وعبدالغفار مكاوي في (خواطر عن فاوست)، في كتاب البلد البعيد، القاهرة١٩٦٨م.

إضافة إلى المقالات القيمة الواردة في مجلة فصول القاهرية المجلد الثالث العدد الرابع، يوليو ١٩٨٣م، لكل من كمال رضوان (فكرة فاوست منذ عصر جوته)، ومصطفى ماهر (فاوست في الأدب العربي المعاصر)، وعصام بهي في (الشيطان في ثلاث مسرحيات). وكذلك مقال عبدالغفار مكاوي، بعنوان (مأساة فاوست وبعض ظلالها على الأدب المصري الحديث)، في كتاب (غوته العبقرية العالمية) الصادر عن إذاعة صوت ألمانيا عام ١٩٩٩م.

الشيطان بين جوته وقومه

في الثقافة الألمانية هناك الكثير من الأسماء للشيطان، منها ما يلي:

التنين العملاق، الثعبان، أمير الظلام، أمير هذا العالم، أمير الذباب، الثالث عشر، الساقط، عبد الكذب، الأناني المطلق، مفرق الجماعات، أمير الجحيم، المخادع، المضل، نجم الصباح، الخاسر، حيوان جهنم.

ومن الاقتباسات الشهيرة التي ورد فيها اسم الشيطان في اللغة الألمانية ما يلي:

– «الشيطان هو اختراع ألماني» فريدريش فون شليجل.

– «غادر الشيطان العالم، لأنه يعلم أن الناس يعذب بعضهم بعضًا» فريدريش روكرت.

– «الذي بنى أفضل الكنائس منذ القدم هو الشيطان» هاينريش هاينه.

– «الشيطان متفائل، إذا اعتقد أنه قادر على أن يزيد الناس سوءًا» كارل كروايس.

– «يجب أن يكون المسيحي إنسانًا سعيدًا، فإن لم يفعل، فقد مسه الشيطان» مارتين لوثر.

– «إذا لم يأت الشيطان بنفسه، فإنه يرسل امرأة» فريدريش نيتشه.

– «المتجسسون والمتظاهرون هم من ينسج عش الشيطان» مثل ألماني.

– «الشك يأكل مع الشيطان من نفس الوعاء» مثل ألماني.

– «من يمسه الشيطان، تصيبه العجلة» مثل ألماني.

– «إذا ذكرت الشيطان، جاءك مهرولاً» مثل ألماني.

لعل غوته قد تأثر في رسمه لصورة الشيطان بالخلفية الدينية والثقافية التي كانت سائدة في عصره، إلا أنه – كما ورد في مقال عصام بهي سالف الذكر – قد استطاع أن يضفي عليها طابعًا مميزًا من نفسه وقدراته الفنية، فمفيستو عند غوته، نقيض الإيمان والتفاؤل، وتجسيد لروح السخرية، فقليلون هم الذين أمكنهم أن يهربوا من نظرته التهكمية المريرة. وهو واقعي، يؤكد الحقيقة، وحاضر البديهة، ونكي يستمتع إلى حد السعادة الشريرة، عندما يقوم بشروره. مما جعل من الشيطان شخصية متكاملة حية ذاتية الملامح، لا تلتبس بأي شخصية أخرى. ولعل هذا هو ما جعل لهذه الشخصية جاذبيتها الأسرة، التي لم يستطع كاتب بعد غوته أن يتخلص منها.

لم يسع غوته من خلال تشخيصه للشيطان، أن يجعله محببًا للنفس، أو أن يبرر أفعاله، على الإطلاق، لكنه يلجأ إلى أسلوب مختلف عما تعودناه من ترهيب من كيد الشيطان، وتخويف من غوايته لنا، إذ فضّل غوته أن يستخدم أسلوب الإقناع، يوضح لقارئه أنه مهما استطاع الإنسان المطيع للشيطان إرضاء لشهواته، فإن سعادته زائلة، ومهما حصل على يديه من مال، فإنه لن يصبح غنيًا، بل سيظل صدره خاويًا من السعادة، وحتى لو ساعده في تكوين أسرة، فإنها ستزول في لمح البصر، وأن الخلاص لا يكون إلا باللجوء إلى الله، الذي لا يصد من يطرق بابه، ولا يحرم من رحمته إلا من أبى.

صــورة الـطـبـيـعـة عـنـد غـوتـه

فيرنر هايزنبرغ
ترجمة: صلاح حاتم

إن صورة الطبيعة عند غوته وعالم التقنية والعلوم الطبيعية موضوع قديم مثله كمثل مساعي غوته وجهوده الرامية إلى فهم الطبيعة؛ كما أنه موضوع قديم قدم بحوثه العلمية؛ إذ إن غوته نفسه عاصر بدايات عالم التقنية والعلوم الطبيعية الذي نعيش فيه الآن.
ولقد قيل الكثير في هذا الموضوع بدءا من غوته ومعاصريه إلى علماء طبيعيين وفلاسفة جاؤوا بعده. ونحن نعرف منذ زمن طويل أنه كان لهذه المسألة دورها المهم في حياة غوته. كما نعرف أيضا كل ما أصبح في عالمنا الحديث موضع الشك والتساؤل. وكثيرا ما أشير إلى رد الفعل الذي أبداه غوته بحدة وانفعال حيال الهوة الفاصلة بين علم الألوان الخاص به وعلم الضوء لدى نيوتن، مع أنه تم الاعتراف بهذا العلم بعامة. كما أننا نعرف أيضا كم كان جداله ضد نيوتن عنيفا وذاتيا بين الحين والحين.

ولوحظ أيضاً أن نقده للرومانسية وموقفه الرفضي من الفن الرومانسي ينمان على نوع من الصلة الروحية بجداله ضد علم الطبيعة السائد.
ولقد قيل وكتب الكثير في هذا الموضوع، كما سلطت الأضواء من شتى الجوانب على المشكلة الكامنة وراء هذا كله بحيث لم تعد هناك أية إمكانية أخرى إلا تتبُّع الأفكار التي طُرحت مراراً وتكراراً وتفحُّصها انطلاقاً مما توصل إليه عالم التقنية والعلوم الطبيعية الحديث من معرفة وعلم، وعلى الأخص إعادة النظر في أحدث التطورات على صعيد العلوم الطبيعية.
وهذا ما ينبغي التطرق إليه فيما بعد.
وإننا، في أثناء ذلك، لن نميل إلى الرأي المتشائم كما فعل كارل ياسبرز[1] وهو أن غوته لم يعد لديه أي شيء يقوله لنا، لا لشيء إلا لأنه أعرض عن عالم التقنية الصاعد ولأنه لم يدرك المهمة بأن يجد في هذا العالم الجديد الطريق إلى الإنسان. على أننا نريد أن نسلم بمطالب غوته ونعدّها سارية المفعول، كما أننا نريد أن نواجه بها عالمنا الحديث، إذ إننا لا نعتقد أن ثمة ما يدعو إلى التشاؤم.
وفي المئة والخمسين سنة التي خلت، ومنذ أن فكر غوته بالظاهرة الأصلية لنشوء الألوان وكتب فيها القصائد، تطور العالم تطوراً يختلف أيما اختلاف عما كان غوته يتوقعه.
على أن الشيطان الذي كان فاوست قد أبرم معه العقد الخطير لم يجرّ هذا العالم إلى الهاوية جراً نهائياً. وهذا ما ينبغي أن نواجه به نقاد عصرنا الأشداء، في حين ينبغي علينا أن ننظر مرة أخرى إلى الجدل القديم بمنظارنا العصري.
كان غوته يرى أن كل النظرات إلى الطبيعة وكل فهم وإدراك لها يبدأ بالانطباع الحسي المباشر، أي بالحادثة الطبيعية الحرة المكشوفة مباشرة أمام الحواس، وليس بالظاهرة الفردية التي غربلتها وصفّتها أجهزة واستُخلصت من الطبيعة قسراً بحسب الظروف. ولنقتبس أي موضع نختاره من فصل "ألوان فيزيولوجية" من كتاب غوته في علم الألوان.

فالهبوط من جبل البروكين (الهارتس) المكلل بالثلج في مساء شتائي دفع بغوته إلى أن يدلي بالملاحظة التالية: "ولما كانت ثمة ظلال بنفسجية خفيفة واضحة مرئية في النهار عند صفيحة الثلج الضاربة إلى الصفرة كان لابد من أن يؤكد المرء بأنها ذات لون شديد الزرقة وذلك حين انعكست من الأجزاء المضيئة صفرة متزايدة. ولكن حين أذنت الشمس بالغروب ونفذت بأشعتها المعتدلة من خلال الضباب الكثيف وغمرت الكون المحيط بي بأجمل الألوان الأرجوانية، عندها استحال اللون الظليل إلى أخضر كان بالإمكان مقارنته في صفائه بخضرة البحار وفي جماله بخضرة الزمرد. ثم صارت الظاهرة أكثر حيوية. وحسب المرء نفسه أنه في عالم الجنيات، إذ إن كل شيء قد ازدان بلونين متوهجين متناغمين تناغماً جميلاً إلى أن اختفت أخيراً ظاهرة البهاء مع غروب الشمس في الغسق، ثم في ليل القمر والنجوم."

على أن غوته لم يقف عند حد الرصد المباشر. ولقد عرف حق المعرفة أن الانطباع المباشر يمكن أن يستحيل إلى معرفة أيضاً وذلك عن طريق علاقة تقوم في بادىء الأمر على الافتراض ثم لا تلبث أن تستحيل بالنجاح إلى يقين.
ولسوف أقبس على سبيل المثال شاهداً من مقدمة علم الألوان مفاده "إن مجرد النظر إلى شيء ما لا يمكن أن يسدي إلينا أي عون أو خدمة. فكل رؤية تصير إلى تأمل، وكل تأمل يتحول إلى تفكير، وهذا بدوره إلى ربط؛ وعلى هذا كان بوسعنا القول إننا نضع نظرية لدى كل نظرة فاحصة في الكون. ولكي نقوم بذلك ونعتزم فعله عن وعي ومعرفة للذات وبحرية وتهكّم، إذا ما جاز لنا استخدام هذه الكلمة الجريئة، لابد إذن من مثل هذه المهارة حين يصير التجريد الذي نخشاه غير ذي ضرر وتصير نتيجة التجربة التي نتوخاها حية ونافعة."
وبعبارة "التجريد الذي نخشاه" يستبين لنا تماماً أين ينبغي أن تفترق طريق غوته عن طريق علم الطبيعة السائد. ويعرف غوته أن كل معرفة تحتاج إلى الصور والربط والبنى المعبِّرة. ومن دون ذلك فإن المعرفة محال. على أن الطريق إلى هذه البنى سيؤدي لامحالة إلى التجريد. وكان غوته قد عرف هذا وهو منكب على بحوثه في مورفولوجيا النبات. ففي الأشكال المتنوّعة للنباتات التي شاهدها غوته وأنعم النظر فيها، لاسيما أثناء رحلته إلى إيطاليا، ظن أن دراسة دقيقة شاملة قد تهديه، بمزيد من الوضوح، إلى معرفة قانون أساسي موحّد. وتكلم على "الشكل الأساسي الذي تمارس الطبيعة لعبتها معه أبداً وعلى نحو كما تبدع، وهي تلهو، شتى ضروب الحياة".
وعلى هذا توصل غوته إلى تصوُّر ظاهرة أساسية، أي أنه اهتدى إلى البنية الأصلية.
ويقول غوته: "إنه بهذا النموذج وبهذا المفتاح أيضاً يستطيع المرء أن يوجد نباتات لا حصر لها، وحتى ولو لم يكن لها وجود يمكن أن يكون لها عندئذ وجودها وحقيقتها وضرورتها."
وهنا، وبهذا يقف غوته عند حدود التجريد الذي كان يخشاه. فهو نفسه لم يفلح في تجاوز هذه الحدود. وكان قد حذّر أيضاً وأشار على الفيزيائيين والفلاسفة بأن يلتزموا هذا الحد أيضاً. "فلو تم اكتشاف مثل هذه الظاهرة الأساسية لظل الشر قائماً في أن المرء يأبى الاعتراف بالظاهرة كظاهرة، وأننا نجد في البحث عن شيء آخر يكمن وراء هذه الظاهرة أو فوقها على حين نجدنا مضطرين إلى أن نعترف بأن للنظر حدوده. وما على العالم الطبيعي إلا أن يترك الظاهرات الأساسية وشأنها في عظمتها الخالدة وسكونها الأزلي."
وعلى هذا فليس بضروري تجاوز الحدود المؤدية إلى التجريد. ومتى تم بلوغ حدود الرؤية لابد أن تكون عندها نهاية الطريق حين يستبدل المرء الرؤية بالتفكير التجريدي. وكان غوته على يقين بأن التحرُّر من عالم المحسوسات الواقعي والدخول إلى عالم التجريد اللامتناهي لابد أن يقود إلى الشر أكثر منه إلى الخير.
على أن علم الطبيعة كان قد سلك منذ عهد نيوتن سبلاً أخرى. فعلم الطبيعة هذا لم يخش التجريد منذ البداية. فالنجاح الذي أحرزه علم الطبيعة، سواء في إيضاحه نظام الكواكب السيارة أو بالاستعمال التطبيقي للميكانيكا أو بتصميم أجهزة وآلات بصرية أو نجاحه في أمور أخرى عديدة، هذا كله أثبت صحة هذا العلم وشرعيته؛ وسرعان ما أدى هذا النجاح كله إلى أن تحذيرات غوته لم تلق آذاناً مصغية. على أن علم الطبيعة هذا تطور تطوراً هادفاً منطقياً بدءاً من مؤلف نيوتن الضخم المبادىء الرياضية للعلوم الطبيعية والفلسفة إلى يومنا هذا، في حين غيرت نتائج علم الطبيعة على صعيد العلوم التقنية صورة الأرض تغييراً جذرياً شاملاً.

هل استهان غوته بالخصم؟

يكتمل التجريد في علم الطبيعة الشائع في موضعين مختلفين بعض الشيء. على أن الواجب يقضي أن ندرك الشيء البسيط في شتى أنواع الظواهر.
وعلى هذا كان ضرورياً بأن يسعى الفيزيائيون إلى الكشف عن حوادث بسيطة في نسيج الظواهر المعقد المحيِّر. ولكن ما هو البسيط؟ ويأتينا الجواب، بدءاً من عهد غاليليه إلى عهد نيوتن، بأن البسيط هو الحدث الذي يمكن تصويرِ مجراه المنتظم بكل تفاصيله تصويراً كمياً ورياضياً من غير ما مشقة أو صعوبة. فالحدث البسيط، إذن، ليس ذلك الحدث الذي تقدمه لنا الطبيعة المباشرة؛ بل ينبغي على الفيزيائي أن يفصل بادىء ذي بدء خليط الظواهر المتنوع بواسطة أجهزة جدّ معقدة، كما ينبغي عليه أيضاً أن يخلص الشيء المهم من كل الملحقات الفرعية لكي يظهر الحدث "البسيط" وحده بجلاء فيستطيع المؤدِّية إلى التجريد. وليس هذا إلا ضرباً من ضروب التجريد. ويرى غوته بهذا الصدد أن الطبيعة نفسها أبعدت بذلك وانتفت فيقول: "حسبنا أن نواجه الزعم الجزئي القائل بأن هذا لايزال يشكل طبيعة، وذلك بابتسامة هادئة على الأقل أو بهزة رأس خفيفة. ثم ألا يخطر في بال الهندسِ المعماري بأن يدّعي أن قصوره مأو أو نُزُل جبلية وغابات."
وتكمن الصورة الأخرى للتجريد في استخدام الرياضيات لتصوير الظواهر ورسمها هندسياً. ولقد اتضح في ميكانيكا نيوتن للمرة الأولى – مما كان السبب في نجاحه العظيم – أنه بالإمكان الجمع بين ميادين تجريبية واسعة جمعاً متشاكلاً بالوصف الرياضي. وبهذا يكون بالإمكان فهمها أيضاً ببساطة. وما قوانين غاليليه في سقوط الأجسام ودوران القمر حول الأرض وحركة الأجرام السماوية حول الشمس ونبذبات نابض ومسار حجر مقذوف إلا ظواهر يمكن اشتقاقها من المعادلة التي تنص على أن الكتلة × السرعة = الطاقة.
يضاف إلى هذا أيضاً قانون الجاذبية الأرضية. فالمعادلة الرياضية المتشكلة كانت، إذن، المفتاح المجرد للفهم التام لميادين طبيعية في غاية من الاتساع. ولقد ناهض غوته من غير طائل الركون إلى الطاقة المنتشرة لهذا المفتاح. ولقد كتب غوته في إحدى رسائله إلى تسيلتر[2] قائلاً: "إن الشر الأعظم للفيزياء الحديثة هو أن المرء عزل التجارب عن الإنسان على نحو ما، ويريد أن يدرك الطبيعة في الشيء الذي تكشف عنه أجهزة اصطناعية، ليس غير؛ لا بل إنه يريد بذلك أن يحدّ مما يمكن للطبيعة أن تقوم به مقدماً الدليل على ذلك [...]
وتلك هي الحال أيضاً مع الحساب، والحق أن هناك الكثير مما لا يمكن حسابه، كما أن هناك الكثير الذي يتأبى على التجربة المحددة الواضحة."
ألم يدرك غوته حقاً القوة المنظمة أو ما أنجزه منهج العلوم الطبيعية من معرفة على صعيد التجربة والرياضيات؟ وهل استهان بالخصم الذي قاومه بلا كلل في علم الألوان ومواضع أخرى؟ أم أنه لم يرغب في معرفة هذه القوة لأن القيم كانت في نظره مهددة ولم يكن على استعداد للتضحية بها؟ ولسوف يجد المرء نفسه مضطراً إلى أن يجيب بأن غوته رفض أن يسلك هذا الطريق المجرد المؤدي إلى الفهم الكامل لأن هذا الطريق كان في نظر غوته محفوفاً بالمخاطر.
أما المخاطر التي كان غوته يخشاها فلم يحددها في أيّما موضع تحديداً تاماً.
على أن فاوست – أعظم الشخصيات في أدب غوته وأشهرها – يجعلنا نحس ما هي المسألة. وفاوست، عدا عن أشياء أخرى كثيرة، فيزيائي خاب فأله، ونجده في حجرة المكتب، وقد أحاطت به أجهزة وآلات، يخاطبها قائلاً: "أيتها الآلات! الحق أنك لتهزأين مني بالعجلات والأمشاط، بالأسوانة والذراع. ولقد وقفت بالباب، وكان عليك أن تكوني المفتاح. ولئن كان اللسان لولبيا، إلا أنك لن ترفعي المزلاج." [3]
ولعل العلامات الغامضة التي يبحث عنها في كتاب نوستراداموس[4] مماثلة للرموز الرياضية. ثم إن عالم الرموز والآلات وذلك التعطش الشديد إلى معرفة تزداد عمقاً وتجريداً يدفعان بالبائس القانط إلى أن يبرم عقداً مع الشيطان. إذ إن الطريق الذي يقود من وسط الحياة الطبيعية إلى المعرفة المجردة قد ينتهي عند الشيطان. وكان هذا هو الخطر الذي طبع موقف غوته من عالم العلوم الطبيعية والتقنية. ولقد أحس غوته بالقوى الشيطانية التي صار لها مفعولها في هذا التطور. وكان على يقين من أن الواجب يقضي عليه بأن يتفاداها. على أنه قد يأتي الرد بأنه ليس من السهولة بمكان تجنب الشيطان وتحاشيه.
وكان غوته نفسه مضطراً منذ البداية، وفي وقت سابق، إلى أن يلجأ إلى حلول وسطية. وكان أهم هذه الحلول هو التسليم بمذهب كوبرنيكوس في الحياة. حتى إنه لم يستطع أن يصمد أمام قوة الإقناع التي اتسم بها هذا المذهب. وهنا عرف غوته أيضاً أن هذا الموقف لابد أن يكلف تضحيات كثيرة. وأعود لأقبس من كتاب علم الألوان حيث يقول: "الحق أنه لا مثيل لمذهب كوبرنيكوس بين جميع الاكتشافات والمعتقدات في تأثيره البالغ في العقل الإنساني."
وما إن تم الاعتراف بأن العالم دائروي وتام في ذاته حتى كان عليه أن يتنازل عن الحق المكتسب الهائل بأنه محور الكون. وربما لم يحدث إلى الآن أن طُلب من الإنسانية مطلب أعظم. إذن فأي شيء لم يذهب هباء؟
هذا الاعتراف: عالم الفردوس الآخر وعالم البراءة والفن والتقوى وشهادة الحواس والاقتناع بإيمان ديني شعري.
ولاعجب في أن المرء لم يرغب في التخلي عن هذا كله وعارض في الأحوال كلها مثل هذا المذهب الذي يحرم معتنقه الحقَّ في حرية فكرية لم تكن متوقعة من قبلُ ولم تخطر ببال أحد أو لم يمكّنه من خلق "عظيم ولم يستحثه إلى أي منهما". ونجدنا مضطرين إلى أن نجابه بهذا الشاهد أولئك الذين يحاولون في عصرنا الحاضر أن يشككوا بصحة علم الطبيعة الحديث والتزاماته وذلك لكي يكونوا بمنجاة من الأخطار التي كان غوته يخشاها. وعلى هذا لابد من الإلماع إلى أن علم الطبيعة هذا قد يغير أيضاً من آرائه على مدى الأيام أو قد يعدِّلها وأنه، على سبيل المثال، لم يعد معترفاً بصحة ميكانيكا نيوتن وأن النظرية النسبية ونظرية الكم قد حلتا محله وأن هناك مسوغاً للشك في ادعاءات علم الطبيعة هذا.
على أن هذا الاعتراض ينهض على سوء فهم، وهو أنه كيف السبيل إلى المعرفة من السؤال عن مكانة الأرض من نظام الكواكب. ولئن كان عين الصواب أن نظرية أيشتاين في النسبية لم تُسقط من الحساب إمكانية اعتبار الأرض ساكنة وأن الشمس لا تكف عن الحركة حول الأرض، فإن هذا لم يغير شيئاً في الفرضية الحاسمة لنظرية نيوتن بأن الشمس تحدد مسار الكواكب بتأثير جاذبيتها القوي. وعلى هذا فليس من سبيل إلى فهم نظام الكواكب فهماً حقيقياً إلا بالانطلاق من الشمس

كمركز لقوة الجاذبية. ولابد من التأكيد أيضاً أنه لا يمكن الخلاص من نتائج علم الطبيعة الحديث إذا ما قبلنا بمنهجه القائل بالرصد الذي يتطور إلى تجربة وبالتحليل العقلاني الذي يتخذ شكله الدقيق في صورة رياضية.

وليس بوسع المرء أن يرتاب بجد في صحة النتائج إذا ما قبل بالتجربة والتحليل العقلاني. وربما كان بوسع المرء أن يطرح سؤاله عن القيمة فيتساءل عما إذا كانت المعرفة المكتسبة بذات قيمة. وإذا لم يحاول المرء أن يجيب على هذا السؤال بمفهوم غوته، بل بما يناسب روح عصرنا الحاضر أو أن يسلّم بحجة النفع ولو بقليل من الشك، عندها يمكن التنويه إلى منجزات العلم الحديث والتقنية الحديثة والإشارة إلى العلاج الفعال لكثير من العلل وإلى تخفيف آلام المريض بالدواء الحديث وإلى راحة النقل والمرور وغيرها.

ومما لاشك فيه أن غوته الذي أراد أن يقف من الحياة وقفة الرجل الفعال ما كان ليجابه مثل هذه الحجج إلا بمزيد من الفهم. ومتى انطلق المرء من موقف إنسان هذا الوجود ومن الصعوبات التي تنغص عيشه أو من المطالب المترتّبة عليه، قدّر عندئذ عالي التقدير إمكانية النشاط العملي الفعال ومساعدة الآخرين وتحسينّ الظروف المعاشية بعامة.

وحسب المرء أن يقرأ لغوته أجزاء كبيرة من رواية فيلهلم مايستر سنوات التجوال أو آن يقرأ الفصول الأخيرة من مسرحية فاوست ليدرك مدى اهتمام غوته بهذا الجانب من مشكلتنا.

ومما لاريب فيه أن الناحية العملية كانت مفهومة لدى غوته أكثر من غيرها من النواحي المختلفة لعالم العلوم الطبيعية والتقنية. على أن غوته لم يستطع رغم ذلك، أن يتخلص من الخوف بأن للشيطان ضلعاً في الأمر. وفي المشهد الأخير من مسرحية فاوست ينقلب نجاح الحياة العملية وغناها إلى تافه وسخيف وذلك بمقتل من المرضى وخفف عن الكثيرين من الناس الآلام المبرحة. على أن الطب الحديث أدى أيضاً إلى ذلك الانفجار السكاني فوق الكرة الأرضية. ثم إن هذا بدوره لابد أن يسبب كوارث مخيفة إذا ما تعذر إيقاف هذا الانفجار والحد منه على نحو ما وفي وقت عاجل، وذلك باتخاذ إجراءات تنظيمية سليمة. ومن ذا الذي يستطيع أن يعرف إن كان الطب الحديث سيحدد أهدافه تحديداً صحيحاً وسليماً في كل مكان في الدنيا.

وعلى هذا فعلم الطبيعة الحديث يمدّنا بالمعلومات الصحيحة المنزّهة عن الشك. ثم إن التقنية المنبثقة عن هذا العلم تتيح استخدام هذه المعلومات لتحقيق أهداف عريضة ومآرب كبيرة أيضاً. على أنه لم يتم الفصل أبداً فيما إذا كان التقدم الذي أحرزه العالم بذي قيمة. وسيتقرر هذا قبل كل شيء بالتصورات عن القيمة، تلك التصورات التي ينقاد إليها الناس أثناء تحديد الأهداف. على أن هذه التصورات لا يمكن أن تصدر عن العلم نفسه، وعلى أية حال فإنها، إلى الآن، لم تنجم عنه.

أما احتجاج غوته القاطع ضد مفاهيم العلوم الطبيعية المستخدمة منذ عهد نيوتن فهو موجّه ضد انهيار مفهومي "الصحة" و"الحقيقة" في هذه المناهج. وكان غوته يرى أنه لا يمكن الفصل بين الحقيقة جزءاً كبيراً من الطريق، كما نظر بقلق بالغ إلى ما كان يندر بحدوث شيء.

وفي أثناء ذلك مضى نحو قرن ونصف القرن ونحن نعرف إلى أين قادت تلك الطريق حتى الآن. إن آخر المعالم التي شاهدناها على جانب الطريق كانت الطائرات النفاثة والآلات الحاسبة الإلكترونية والأقمار الصناعية والقنابل الذرية. أما العالم الذي حدّده علم الطبيعة النيوتوني وتوقع غوته أن يبتعد عنه، فقد أصبح واقعاً لنا لاجدوى البتة من التفكير بأن للشيطان يداً في ذلك.

وما على المرء إلا أن يسلم بالأمر الواقع كما سلّم بذلك علي مر الأزمان، على حين لم نصل بعد إلى نهاية هذا الطريق. والأرجح أن الوقت بات قريباً لتشمل عملية التطور التقني هذه علم الأحياء شمولاً تاماً. ولقد سبق الكلام بين الحين والحين على أن الأخطار تكثر، حتى حيال التهديد بالسلاح الذري. وربما وجدنا ذلك في غاية من الحدة في الصورة الكاريكاتورية لعالم مستقبلي رسمها هكسلي[٦] بعنف وقسوة تحت عنوان العالم جديد جسور. وباستنتاج مرعب، يضع موضع السخرية إمكانية تربية البشر من أجل الأهداف المعينة لهم، كما بين سخف إمكانية تنظيم الحياة كلها على الأرض تنظيماً عقلانياً، أي بالسعي نحو خدمة الأغراض والمنفعة. وبهذا يكون تجريد الحياة من كل معانيها. على أنه ليس من حاجة إلى المضي إلى أبعد من ذلك لكي يدرك المرء أن خدمة الغرض ليست بقيمة البتة، بل إنها أزاحت السؤال عن القيمة من مكانه موضعاً واحداً، ليس غير، وذلك من أجل المسألة الأخرى التي مفادها ما إذا كان الغرض الذي تلائمه المعلومات والإمكانيات الخاصة بذلك والتي من شأنها أن تخدم هذا الغرض بذات قيمة أصلاً.

أما الطب الحديث فقد استأصل على نطاق واسع شأفة الأوبئة الخطيرة التي تفشت على الكرة الأرضية، كما أنقذ حياة الكثيرين من المرضى وخفف عن الكثيرين من الناس الآلام المبرحة. على أن الطب الحديث أدى أيضاً إلى ذلك الانفجار السكاني فوق الكرة الأرضية. ثم إن هذا بدوره لابد أن يسبب كوارث مخيفة إذا ما تعذر إيقاف هذا الانفجار والحد منه على نحو ما وفي وقت عاجل، وذلك باتخاذ إجراءات تنظيمية سليمة. ومن ذا الذي يستطيع أن يعرف إن كان الطب الحديث سيحدد أهدافه تحديداً صحيحاً وسليماً في كل مكان في الدنيا.

وعلى هذا فعلم الطبيعة الحديث يمدّنا بالمعلومات الصحيحة المنزّهة عن الشك. ثم إن التقنية المنبثقة عن هذا العلم تتيح استخدام هذه المعلومات لتحقيق أهداف عريضة ومآرب كبيرة أيضاً. على أنه لم يتم الفصل أبداً فيما إذا كان التقدم الذي أحرزه العالم بذي قيمة. وسيتقرر هذا قبل كل شيء بالتصورات عن القيمة، تلك التصورات التي ينقاد إليها الناس أثناء تحديد الأهداف. على أن هذه التصورات لا يمكن أن تصدر عن العلم نفسه، وعلى أية حال فإنها، إلى الآن، لم تنجم عنه.

أما احتجاج غوته القاطع ضد مفاهيم العلوم الطبيعية المستخدمة منذ عهد نيوتن فهو موجّه ضد انهيار مفهومي "الصحة" و"الحقيقة" في هذه المناهج. وكان غوته يرى أنه لا يمكن الفصل بين الحقيقة

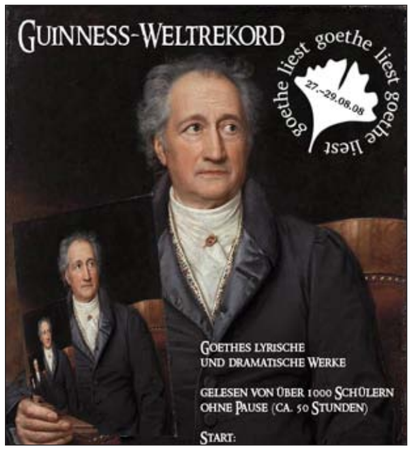

ومفهوم القيمة. ثم إن مفهوم "الواحد الأحد والخير والحق" كان في نظر غوته والفلاسفة القدامى بمثابة البوصلة التي استطاعت أن تهدي الإنسانية عبر العصور في أثناء البحث عن مفهوم "الحقيقة". ومن ثم إذا لم يعد النظام الإلهي يحدد في العلم الاتجاه تلقائياً فإن هذا العلم محفوف بالأخطار الجسيمة، وهو، على حد تعبير غوته في مسرحية فاوست، واقع في قبضة الشيطان. وعلى هذا، رفض غوته القبول بهذا العلم، حيث إن عالما مظلماً حالك السواد لم يعد يضيئه النور المركزي، نور "الواحد الأحد والخير والحق"، لهو عالم لا قيمة فيه لأي تقدم علمي تقني، إلا أن يكون هذا التقدم مجرد محاولات يائسة لتجعل الجحيم مريحاً للإقامة، كما عبر البرشت هالل ذات مرة بهذا الصدد.

ولابد من توكيد ذلك أمام هؤلاء الذين يعتقدون أنهم قادرون على أن يخلقوا الشروط الأساسية لعصر ذهبي وذلك بنشر حضارة العلوم الطبيعية والتقنية في أقصى أرجاء المعمورة. وبمثل هذه السهولة لا يمكن الإفلات من قبضة الشيطان.

وقبل أن نبحث فيما إذا كان كل من "الصحة" و"الحقيقة" منفصلاً عن الآخر انفصالاً تاماً، كما بدا إلى الآن، علينا إذن أن نسأل سؤالاً آخر. والسؤال هو: هل كان لزاماً على غوته أن يستعين بعلم الطبيعة الخاص به وبطريقته في رصد الطبيعة ليجابه بشيء ذي فاعلية عالم العلوم الطبيعية والتقنية الذي تكون بعد نيوتن؟ ومع أن أدب غوته أثّر تأثيراً كبيراً في القرن التاسع عشر فقد عرف أن أفكاره وآراءه في علم الطبيعة لم تكن معروفة إلا عند فئة معينة من الناس وأنها لم تؤت أكلها. لكنها ربما احتوت على البذرة التي ربما لها أن تنمو بالعناية الدقيقة، وذلك حين تراجع الإيمان المسايح بالتقدم أمام فاوست، واقع في قبضة الشيطان. وعلى هذا، نجدنا مدفوعين إلى السؤال مرة أخرى عما تمتاز به نظرة غوته إلى الطبيعة، وعما يميز طريقته في النظر إلى الطبيعة من طريقة نيوتن ومن جاء بعده. وعلى هذا، وفي المقام الأول، لابد من الإشارة إلى أن نظرة غوته إلى الطبيعة تنطلق من الإنسان وأن مركز كل شيء هو الإنسان وتجربته المباشرة للطبيعة. وانطلاقاً من هذا المركز تنتظم الظواهر في نظام منطقي سليم. ولئن كانت هذه الصياغة التعبيرية صحيحة وصائبة، ولئن بُيّنت بوضوح شديد أن ثمة فارقاً كبيراً بين نظرة غوته إلى الطبيعة ونظرة نيوتن، فإنها، مع هذا، أغفلت نقطة أساسية، وهي أن النظام الإلهي، على اعتقاد غوته، يتجلى للإنسان في الطبيعة.

إن غوته الشيخ لم يعد يرى في التجربة الذاتية أمراً ذا بال، مع أنها كانت قد ملكت عليه نفسه وهو شاب؛ إن ما يهمه هو النظام الإلهي الذي يمكن معرفته في هذه التجربة. فالمسألة بنظر غوته ليست مسألة مجاز أو استعارة فنية فحسب، وذلك حين يتأثر المؤمن في قصيدة "تركة عقيدة الفرس القدامى" بمنظر الشمس حين شروقها فوق الجبال مما يدفعه إلى أن "يبصر الإله وقد استوى على عرشه ويسمعه ربّ منابع الحياة وأن يسلك مسلكاً جديراً بهذا المنظر السامي الرفيع ويطوف في هذا الضياء". ويعتقد غوته أنه لابد أن يتلاءم المنهج العلمي مع مضمون التجربة في الطبيعة. وبهذا ينبغي أن ينظر إلى البحث عن الظاهرة الأصلية بأنه بحث عن البنى التي هي أساس للظاهرة والتي كوّنها الله. وهذه البنى لا يمكن تكوينها بالعقل فحسب، بل بالإمكان رؤيتها مباشرة فضلاً عن الإحساس بها مباشرة.

ويبيّن غوته بأن "الظاهرة الأصلية لا يمكن مساواتها بقاعدة أو مبدأ تتمخض عنه شتى النتائج، بل ينبغي عدها ظاهرة أساسية يمكن من داخلها العام النظر في الينبوع وتأمله جيداً.

والحق أن الرؤية والحدس واليقين وجميع حواس اللمس التي يستخدمها الإنسان في هذا الكون يجب أن تتعاون معاً إذا ما أردنا أن نؤدي رسالتنا الجلية رغم كل صعوبتها."

ويرى غوته بوضوح أن البنى الأساسية يجب أن تكون متشاكلة بحيث يصعب البت فيما إذا كانت تنتمي إلى العالم الذي تمّت معرفته الموضوعية أم إلى النفس الإنسانية، على حين تشكل هي الشرط لكليهما. وعلى هذا يتوقع غوته أن هذه البنى ستكون ذات فاعلية في "الرؤية والحدس واليقين". على أنه لابد من السؤال التالي: من أين لنا أن نعرف أو كيف يعرف غوته أن أعمق الصلات الحقيقية يمكنها أن تبرز مباشرة بحيث إنها تبدو صريحة؟ ألا يحتمل أن يمثل أمامنا بوضوح تام، في أعلى مرحلة من مراحل التجريد، ذلك الشيء الذي أحس به غوته وأدركه كنظام إلهي للظاهرة الطبيعية؟ أليس بإمكان علم الطبيعة الحديث أن يعطي الجواب على ذلك مع أنه استطاع أن يثبت أمام مطلب القيمة لدى غوته؟

قبل أن نتناول مثل هذه المسائل العويصة لابد من أن ننوه بكلمة إلى رفض غوته للرومانسية. فكثيراً ما تناولها بإسهاب، سواء في رسائله أو مقالاته أو أحاديثه، على حين كانت تمثل بحق الاتجاه الفني لعصره.

ولطالما أخذ على الرومانسية المَأخذ نفسها التي تتمثل في الذاتية والاستغراق في أحلام اليقظة والإيغال في التطرف واللامتناهي والحساسية المريضة والغموض والهيام بالماضي والورع أو التأمل الروحي الواهي ثم أخيراً المجاملة والزيف والمداجاة. وقلما استطاع غوته أن يجبر نفسه على ألا يغض الطرف عن منجزات الرومانسية على صعيد الفن أو على أن يقر بها ويعترف، ليس غير، ذلك لأنه كان ينفر نفوراً شديداً مما هو مرضي في الظاهر – وهذا ما اتصفت به الرومانسية – فضلاً عن هاجسه القوي بالتطور اللامجدي المحتمل.

إن الفن الذي يبتعد عن العالم، كما هي الحال لدى الرومانسية، ثم لا يسعى ليعبر عن الوجود الحقيقي، بل عن انعكاس هذا الوجود في نفس الفنان، لهو مثل أي علم لا يتخذ الطبيعة الحرة موضوعاً له، وإنما يلتفت إلى الظاهرة الفردية التي أعدّت على نحو ما ثم صير إلى عزلها بالأجهزة والآلات.

وبالإمكان أن تعد الرومانسية، ولو في جانب منها، بمثابة رد فعل على عالم هبّ يحول نفسه من خلال العقلانية وعلم الطبيعة والتقنية إلى شرط تطبيقي ومنطقي من شروط الحياة الظاهرية، بحيث إن هذا العالم لم يمنح الإنسان الفرد في كامل وجوده مكاناً مناسباً لأماله وأمانيه.

وعلى هذا لجأ الإنسان الفرد إلى عالمه الداخلي ليركن إليه. وربما كان ثمة انفصال عن الواقع العياني المباشر حيث تؤدي أعمالنا إلى نتائج وعواقب ينبغي علينا مجابهتها. ولئن أحس المرء بهذا الانفصال على أنه ضياع، فإن الإنسان الفرد، كما خشي غوته، هوّن الأمر كثيراً، إن لم يكن قد ارتاح له أكثر، ليهرب إلى عالم الأحلام وليستسلم إلى نشوة العاطفة وينفض عنه وعن الآخرين عبء المسؤولية ويقصف في عالم الأحاسيس اللامتناهي؛ ناهيك عن أن غوته لم يستطع أن يحبذ فناً يسعى إلى أن يصوغ الوجود المباشر في صورة فنية، كما أنه لم يحبذ تهويل الأغوار في النفس الإنسانية والغلوّ في ذلك، ولم يحبذ الخطوة إلى التجريد التي كان لابد لعلم الطبيعة من أن يقوم بها.

إن رفض غوته في كلا الحالتين يعود إلى دوافع متشابهة. وهذا التشابه يقود إلى أبعد من ذلك. فإذا كان غوته قد خشي التجريد في علم الطبيعة وذُعر من هول التساءل فإن ذلك لم يكن إلا لأنه اعتقد أنه يرى في ذلك قوى شيطانية لا يريد أن يكون عرضة لأخطارها. وكان قد جسّد هذه القوى الشيطانية في شخصية الشيطان (ميفيستو). كما أنه رأى في الرومانسية القوى نفسها والفاعلية نفسها. ويطالعنا من جديد الاتساع اللامحدود والانسلاخ عن الواقع والانصراف عن معاييره الثابتة الصحيحة ثم خطر السقوط فيما هو مرضي. وفضلاً عن ذلك فإن الشيء الذي ربما كان له دوره في مواقف غوته وتصرفاته هو أن الصيغة الفنية العليا لتلك المرحلة كانت غريبة عنه نسبياً. فالرياضيات التي يمكننا أن نعدها الصيغة الفنية للتجريد لم تستطع أن تأسر غوته أو أن تجذبه قط، مع أنه كان يحترمها. أما على صعيد الموسيقا، كما يبدو لي، فإن الرومانسية الألمانية قدمت أعظم الإنجازات الفنية. على أن غوته لم يتأثر بهذه الموسيقا كما تأثر بالشعر أو بفن الرسم.

ونحن لا نعرف أية أفكار كانت ستدور في رأس غوته عن الرومانسية لو استطاعت اللغة التي تنطق بها خماسيات شوبيرت[٧] الخماسية أن تبلغ مسامعه. على أن غوته لابد أن يكون قد أدرك أن القوى التي كان يخشاها وكانت تعمل عملها في هذه الموسيقا أكثر بكثير مما كانت عليه في المؤلفات الأدبية الرومانسية الأخرى لم يعد مصدرها الشيطان (ميفيستو) ولا تبشر بسلطانه، ولكنها تبشر بسيطرة ذلك الوسط المنير الذي جاء منه لوسيفر [إبليس] ومنه طرد.

ومما لا غرابة فيه هو أن الخلف لم يأبه لنصيحة الشاعر الألماني الأعظم في تقويم الرومانسية وأن الفن قد انصرف، إلى حد كبير، إلى القضايا والموضوعات والمهام التي كانت الرومانسية قد أولتها اهتمامها لأول مرة. فتاريخ الموسيقا والرسم والأدب في القرن التاسع عشر يري مدى خصب الرومانسية في البداية. وطبيعي أن هذا التاريخ يرينا أيضاً، لاسيما حين نتتبّعه حتى عصرنا الحاضر، كم كانت هموم غوته واعتراضاته صحيحة، كما هي عليه فيما يتعلق بعلم الطبيعة والتقنية. ولسوف يرى المرء على صعيد الفن بعض ظواهر هي ذلك اليقين المباشر الذي يستطيع المرء أن يرتكز عليه ولا يحتاج البتة إلى البحث فيما وراء ذلك. أما الديانويا فهي إمكانية التحليل الكلّي ونتيجة الاستنتاج المنطقي. ومن الواضح لدى أفلاطون أيضاً هو أن النوع الأول من المعرفة (الإيستيمي) فقط يقوم بدور الربط بين ما هو حقيقي وجوهري وبين عالم القيم، على حين يصنع النوع الآخر (الديانويا) المعرفة على أنها معرفة خالية من كل قيمة. والشيء الوحيد الذي حاول شيللر أن يوضّحه في طريق العودة من محاضرة في علم الطبيعة حضرها معاً لم يكن في الحقيقة فلسفة أفلاطونية. بل كان فلسفة كانطية، حيث إن "الفكرة" لدى كانط شيء آخر ذو مدلول فيه الكثير من الذاتية.

ومهما يكن من أمر، فالفكرة منفصلة عن الظاهرة انفصالاً شديداً، حتى إن تعبير شيللر بأن "النبتة الأصلية ليست إلا فكرة" أقلق غوته في الصميم، فجاء رده: "إنه ليسرني أن تكون لدي أفكار من دون أن أعرف وأن أراها بأم عيني." ويروي غوته أن النقاش الذي جرى بعد المحاضرة كان نقاشاً حاداً. ولقد رد شيللر في أثناء ذلك قائلاً: "من أين لنا بتجربة تكون مطابقة لفكرة ما؛ إذ إن في ذلك ما هو مميز للفكرة بحيث لا يمكن أن تطابقها أية تجربة البتة."

وفي ضوء الفلسفة الأفلاطونية لا يدور النقاش حول موضوع الجدال فيما هو فكرة، وإنما هو جدال يتناول أداة المعرفة التي بواسطتها تتكشف لنا الفكرة. فإذا ما استطاع غوته أن يرى الأفكار بالعين، فإن هذه العين، إذن، هي عين تختلف عن العين التي يتحدث الناس العاديون عنها.

ومهما يكن فإنه محال أن نستبدل بهذه العين مجهراً أو رقاقة ضوئية فوتوغرافية. ومهما تكن نتيجة الجدال فإن النبتة الأصلية فكرة وتثبت بأنها فكرة، على حين يستطيع المرء أن يتخذ منها أو، كما يقول غوته، من البنية الأساسية مفتاحاً لإيجاد نباتات لا حصر لها. وبذلك توصل المرء إلى فهم بنية النبتة. ويعني "الفهم" الرجوع إلى مبدأ بسيط متشاكل موحّد. ولكن كيف يبدو هذا في علم الأحياء الحديث؟! إذ إن بنية أساسية أيضاً توجد في هذا العلم. وهذه البنية الأساسية لا تحدد شكل النبات كله فحسب، بل شكل الكائنات الحية كلها جمعاء. إنه ذلك الشيء الصغير البالغ الدقة؛ إنه السلسلة المفتوحة، أي السلسلة المزدوجة المشهورة للحامض النووي.

وإننا الآن لفي غنى عن ذكر اسمه الكيميائي الكامل الذي لا يزال معقداً، مع أن العالمين الأمريكيين واطسن وكريك كانا قد شرحا بنيته وتركيبه منذ خمسة عشر عاماً [قبل إلقاء المحاضرة]. وهذه البنية تحمل الإرث الكامل للكائنات الحية المعنية.

وبحكم تجارب لا حصر لها في ميدان علم الأحياء الحديث لم يعد بوسعنا أن نشك في أن هذا الجري الدقيق هو نفسه يحدد بنية الكائن الحي، ومنه تنبثق، على نحو ما، تلك القوة الخلاقة التي تحدد بنية الكائن العضوي. وطبيعي أنه لا مجال هنا للحديث عن التفاصيل. وبالنظر إلى سداد هذا القول يصح أيضاً ما قيل من قبل عن صحة الأقوال في علم الطبيعة بعامة.

وتنهض الصحة على منهج العلوم الطبيعية وعلى الملاحظة والتحليل العقلاني. ولئن تم التغلب على أولى مراحل الشك في تطور علمي متخصص فإن الصحة تنهض على تلازم شتى الوقائع الفردية في عمل مشترك، كما ترتكز أيضاً على نسيج معقد كبير من التجارب يضفي على القول صحة وسداداً منزّهين عن الطعن والشك.

فهل في الإمكان الآن مفاضلة البنية الأساسية أو السلسلة المزدوجة للحامض النووي بالبنية الأصلية لدى غوته؟ إن الضآلة أو الدقة اللامرئية لهذا الشيء لا تسمح بادىء ذي بدء بعقد أية مقارنة. ولما كان هذا الجزيء الصغير يقوم بالوظيفة نفسها في نطاق علم الحياة، كالنبتة الأصلية لدى غوته في نطاق علم النبات، فسيكون من الصعب الجدال في ذلك.

والمسألة في كلا الحالتين هي مسألة فهم القوى الخالقة المصورة في الطبيعة الحية، وهي أيضاً مسألة إرجاع هذه القوى إلى شيء بسيط، إلى شيء تشترك فيه الأشكال الحية كلها.

والحق أن هذا هو الشيء الذي أنجزته البنية الأصلية لبيولوجيا الجزيء في يومنا هذا، مع أن هذه البنية الأصلية لاتزال على شيء من البساطة والروح البدائية لكي تسمى بالكائن الحي الأصلي، ذلك لأنها لا تملك بعد كل الوظائف التي تعود إلى كائن عضوي كامل. على أن هذا يمنعنا أن نصفها بشيء من هذا القبيل. فلها ما يجمعها أيضاً بالبنية الأصلية لدى غوته، ذلك أنها ليست بنية أساسية أو فكرة أو تصور أو قوة مكونة للشكل فحسب، بل إنها أيضاً شيء مدرك بالحواس أو ظاهرة. ومع أنه لا يمكن رؤيتها بعيوننا العادية، فلن يكون بالإمكان الاستدلال عليها بطريقة غير مباشرة. وفي الإمكان معرفتها بواسطة آلات مجهرية ذات قوة تحليلية عالية أو بوسائل تحليل عقلاني. وعلى هذا فهي حقيقة قلباً وقالباً وليست مجرد وهم أو خيال. من هنا فإن هذا يكاد يفي بكل مطالب غوته التي طرحها على الظاهرة الأصلية. "قد يبدو الأمر مريباً فيما إذا كنا بقادرين على نبصرها ونحسها وندركها بالحدس"، كما يقول غوته، أم

وعلى هذا الطريق إلى هذا المطلب كان غوته قد توصل في نظراته في الطبيعة إلى النبتة الأصلية. ومع أن هذه الظاهرة الأصلية لا يمكن أن تكون مبدأ تستمد منه شتى الظواهر، وإنما هي ظاهرة أساسية نرى في داخلها المتنوّع، فقد أوضح شيللر للشاعر غوته في بينا في عام ١٧٩٤، وفي أول لقاء ربط بينهما بروابط الصداقة، بأن الظاهرة الأصلية لديه ليست في الحقيقة ظاهرة، وإنما فكرة. ونود أن نضيف إلى ذلك بأنها "فكرة" بمفهوم الفلسفة الأفلاطونية.

ولما كان مدلول الـ"فكرة" قد اتخذ طابعاً ذاتياً غير موضوعي، فإننا نميل الآن في الوقت الحاضر إلى أن نستبدل بهذه الكلمة لفظة أخر هي "بنية" أو "شكل". فالنبتة الأصلية، إذن، هي الشكل الأصلي أو البنية الأساسية أو مبدأ النبتة الخلاق الذي لا يمكن إنشاؤه بالعقل فحسب، بل يمكن التأكد منه مباشرة في المعرفة الحدسية. أما الفرق الذي أولاه غوته أهمية كبيرة، فهو ذلك الفرق بين المعرفة المباشرة وبين الاستنتاج العقلاني المحض الذي يكاد يطابق المطابقة كلها ذلك الفرق بين نوعي المعرفة في الفلسفة الأفلاطونية، أي بين الإيبستيمي وبين الديانويا. فالإبستيمي هي ذلك اليقين المباشر الذي يستطيع المرء أن يرتكز عليه ولا يحتاج البتة إلى البحث فيما وراء ذلك. أما الديانويا فهي إمكانية التحليل الكلّي ونتيجة الاستنتاج المنطقي. ومن الواضح لدى أفلاطون أيضاً هو أن النوع الأول من المعرفة (الإيستيمي) فقط يقوم بدور الربط بين ما هو حقيقي وجوهري وبين عالم القيم، على حين يصنع النوع الآخر (الديانويا) المعرفة على أنها معرفة خالية من كل قيمة. والشيء الوحيد الذي حاول شيللر أن يوضّحه في طريق العودة من محاضرة في علم الطبيعة حضرها معاً لم يكن في الحقيقة فلسفة أفلاطونية. بل كان فلسفة كانطية، حيث إن "الفكرة" لدى كانط شيء آخر ذو مدلول فيه الكثير من الذاتية.

ومهما يكن من أمر، فالفكرة منفصلة عن الظاهرة انفصالاً شديداً، حتى إن تعبير شيللر بأن "النبتة الأصلية ليست إلا فكرة" أقلق غوته في الصميم، فجاء رده: "إنه ليسرني أن تكون لدي أفكار من دون أن أعرف وأن أراها بأم عيني." ويروي غوته أن النقاش الذي جرى بعد المحاضرة كان نقاشاً حاداً. ولقد رد شيللر في أثناء ذلك قائلاً: "من أين لنا بتجربة تكون مطابقة لفكرة ما؛ إذ إن في ذلك ما هو مميز للفكرة بحيث لا يمكن أن تطابقها أية تجربة البتة."

وفي ضوء الفلسفة الأفلاطونية لا يدور النقاش حول موضوع الجدال فيما هو فكرة، وإنما هو جدال يتناول أداة المعرفة التي بواسطتها تتكشف لنا الفكرة. فإذا ما استطاع غوته أن يرى الأفكار بالعين، فإن هذه العين، إذن، هي عين تختلف عن العين التي يتحدث الناس العاديون عنها.

ومهما يكن فإنه محال أن نستبدل بهذه العين مجهراً أو رقاقة ضوئية فوتوغرافية. ومهما تكن نتيجة الجدال فإن النبتة الأصلية فكرة وتثبت بأنها فكرة، على حين يستطيع المرء أن يتخذ منها أو، كما يقول غوته، من البنية الأساسية مفتاحاً لإيجاد نباتات لا حصر لها. وبذلك توصل المرء إلى فهم بنية النبتة. ويعني "الفهم" الرجوع إلى مبدأ بسيط متشاكل موحّد. ولكن كيف يبدو هذا في علم الأحياء الحديث؟! إذ إن بنية أساسية أيضاً توجد في هذا العلم. وهذه البنية الأساسية لا تحدد شكل النبات كله فحسب، بل شكل الكائنات الحية كلها جمعاء. إنه ذلك الشيء الصغير البالغ الدقة؛ إنه السلسلة المفتوحة، أي السلسلة المزدوجة المشهورة للحامض النووي.

وإننا الآن لفي غنى عن ذكر اسمه الكيميائي الكامل الذي لا يزال معقداً، مع أن العالمين الأمريكيين واطسن وكريك كانا قد شرحا بنيته وتركيبه منذ خمسة عشر عاماً [قبل إلقاء المحاضرة]. وهذه البنية تحمل الإرث الكامل للكائنات الحية المعنية.

وبحكم تجارب لا حصر لها في ميدان علم الأحياء الحديث لم يعد بوسعنا أن نشك في أن هذا الجري الدقيق هو نفسه يحدد بنية الكائن الحي، ومنه تنبثق، على نحو ما، تلك القوة الخلاقة التي تحدد بنية الكائن العضوي. وطبيعي أنه لا مجال هنا للحديث عن التفاصيل. وبالنظر إلى سداد هذا القول يصح أيضاً ما قيل من قبل عن صحة الأقوال في علم الطبيعة بعامة.

وتنهض الصحة على منهج العلوم الطبيعية وعلى الملاحظة والتحليل العقلاني. ولئن تم التغلب على أولى مراحل الشك في تطور علمي متخصص فإن الصحة تنهض على تلازم شتى الوقائع الفردية في عمل مشترك، كما ترتكز أيضاً على نسيج معقد كبير من التجارب يضفي على القول صحة وسداداً منزّهين عن الطعن والشك.

فهل في الإمكان الآن مفاضلة البنية الأساسية أو السلسلة المزدوجة للحامض النووي بالبنية الأصلية لدى غوته؟ إن الضآلة أو الدقة اللامرئية لهذا الشيء لا تسمح بادىء ذي بدء بعقد أية مقارنة. ولما كان هذا الجزيء الصغير يقوم بالوظيفة نفسها في نطاق علم الحياة، كالنبتة الأصلية لدى غوته في نطاق علم النبات، فسيكون من الصعب الجدال في ذلك.

والمسألة في كلا الحالتين هي مسألة فهم القوى الخالقة المصورة في الطبيعة الحية، وهي أيضاً مسألة إرجاع هذه القوى إلى شيء بسيط، إلى شيء تشترك فيه الأشكال الحية كلها.

والحق أن هذا هو الشيء الذي أنجزته البنية الأصلية لبيولوجيا الجزيء في يومنا هذا، مع أن هذه البنية الأصلية لاتزال على شيء من البساطة والروح البدائية لكي تسمى بالكائن الحي الأصلي، ذلك لأنها لا تملك بعد كل الوظائف التي تعود إلى كائن عضوي كامل. على أن هذا يمنعنا أن نصفها بشيء من هذا القبيل. فلها ما يجمعها أيضاً بالبنية الأصلية لدى غوته، ذلك أنها ليست بنية أساسية أو فكرة أو تصور أو قوة مكونة للشكل فحسب، بل إنها أيضاً شيء مدرك بالحواس أو ظاهرة. ومع أنه لا يمكن رؤيتها بعيوننا العادية، فلن يكون بالإمكان الاستدلال عليها بطريقة غير مباشرة. وفي الإمكان معرفتها بواسطة آلات مجهرية ذات قوة تحليلية عالية أو بوسائل تحليل عقلاني. وعلى هذا فهي حقيقة قلباً وقالباً وليست مجرد وهم أو خيال. من هنا فإن هذا يكاد يفي بكل مطالب غوته التي طرحها على الظاهرة الأصلية. "قد يبدو الأمر مريباً فيما إذا كنا بقادرين على نبصرها ونحسها وندركها بالحدس"، كما يقول غوته، أم

تستحيل إلى موضوع للمعرفة الخالصة بالمفهوم الأفلاطوني. وعلى أية حال، فإن البنية الأصلية في علم الحياة لا تدخل في نطاق هذه النظرة. ولا يسعنا إلا أن نتصور أنها قد تظهر لأول مرة أمام أعين المكتشفين على هذه الصورة.

وحين نسأل عن العلاقة بين الصحة والحقيقة في علم الطبيعة الحديث فلابد لنا عندئذ من أن نؤكد، من الناحية البراغماتية، على انفصال كل من المفهومين بعضهما عن بعض انفصالاً تاماً. لكنه لن يكون بمستبعد أن يلحظ المرء شيئاً من الاقتراب هناك وحيث يدور الموضوع، كما في علم الأحياء، حول إدراك أو معرفة علائق جد كبيرة وقائمة وموجودة في الطبيعة منذ الأزل وليس للإنسان يد في صنعها. ثم إن هذه العلائق الكبرى سوف تظهر في إبنى الأساسية والأفكار الأفلاطونية المتجلية. ولما كانت هذه الأفكار تعلن عن النظام الشامل الكامن وراءها، فلربما كان بالإمكان تلقي هذه الأفكار، لا من العقل فحسب، بل من ميادين أخرى للنفس الإنسانية ذات صلة مباشرة بهذا النظام الشامل. وعلى هذا تكون أيضا على صلة مباشرة بعالم القيم.

وسيتضح هذا، لاسيما حين ننتقل إلى القوانين العامة التي تشمل ميادين علم الأحياء والكيمياء والفيزياء ولم تستبن علاقتها بفيزياء الجزئيات الأساسية إلا في العقود الأخيرة. فالموضوع هنا يدور، إذن حول البنى الأساسية للطبيعة أو الكون بعامة. وهذه البنى لاتزال موغلة في العمق أكثر من البنى الأساسية في علم الحياة. وعلى هذا فهي لاتزال أكثر تجريداً مما يجعل إمكانية الوصول إليها مباشرة عن طريق الحواس أقل بكثير مما هي عليه البنى الأساسية في علم الحياة. لكن مهمتها تصوير ما هو عام لا ما هو خاص، وعلى حين ينبغي على البنية الأصلية في علم الحياة ألا تمثل الكائن الحي لذاته فحسب، وإنما عليها أيضاً أن تميز بين شتى الكائنات الحية التي لا حصر لها وذلك من خلال شتى التصنيفات الممكنة لبعض المجموعات الأقل كيميائية على السلسلة. فإن البنى الأساسية للطبيعة كلها لا تحتاج إلا لتصور وجود هذه الطبيعة وحدها، ليس إلا. وتتحقق هذه الفكرة في الفيزياء على النحو التالي: إذ إنه يصاغ باللغة الرياضية قانون طبيعي أساسي أو صيغة كونية، كما تسمى بين الحين والحين. وعلى جميع ظواهر الطبيعة أن تفي بحاجة هذا القانون الذي يرمز، على نحو ما، إلى الإمكانية والى وجود الطبيعة.

وإن أبسط الحلول للمعادلة الرياضية هو ذلك الذي يمثل شتى الجزئيات الجوهرية (والأساسية) التي هي بدورها، وبالمفهوم نفسه، صيغ أساسية للطبيعة مثلها مثل الأشكال الهندسية للطبيعة كالمكعب والرباعي والسطوح التي عددها أفلاطون صيغاً أساسية للطبيعة. وإذا تذكرنا النقاش الذي دار بين غوته وشيللر رأينا أنها، فضلاً عن ذلك، "أفكار" مثلها مثل البنية الأصلية لدى غوته، حتى لو لم يكن بالإمكان رؤيتها بالعين المجردة. وإذا ما كان بالإمكان معرفتها بمفهوم غوته فإن هذا سيكون وقفاً على وسائل المعرفة التي نقدم بها على الطبيعة.

ومما لا جدال فيه البتة هو أن هذه البنى الأساسية ذات ارتباط مباشر بالنظام الكوني الكبير. على أنه ما زال لنا الخيار فيما إذا كنا راغبين في أن نستحوذ على جزء محدود من هذا الارتباط الكبير يكون بالإمكان إدراكه عقلياً.

فلنلق مرة أخرى نظرة على التطور التاريخي. فالعالم، سواء في علم الطبيعة أم في الفن، سار من عهد غوته فصاعداً على الطريق نفسه الذي كان غوته قد حذّر منه ورآه محفوفاً بالمخاطر. أما الفن فقد انسحب من الواقع العياني المباشر ولجأ إلى عالم النفس الداخلي، على حين حثّ علم الطبيعة الخطى نحو التجريد وأحرز تقدماً هائلاً على صعيد التقنية الحديثة وتوصل إلى البنية البيولوجية الأصلية وإلى الأشكال الأصلية التي تطابق في علم الطبيعة الحديث الصور الأفلاطونية. وفي الوقت نفسه باتت هذه الأفكار تندر بالشر كما كان غوته قد تنبأ. وما علينا إلا أن نتذكر تشييء العمل وتجريده من كل روح. وعلينا ألا ننسى أيضا سخف الأسلحة الذرية ومحالها أو الهروب إلى الهوس الذي كان قد اتخذ شكل حركة سياسية. فالشيطان صاحب حول وطول. على أن المنطقة النيِّرة التي سبق الكلام عليها في أثناء الحديث عن الموسيقا الرومانسية والتي استطاع غوته أن يراها في كل مكان في الطبيعة: هذه المنطقة النيِّرة باتت أيضاً في علم الطبيعة الحديث واضحة، وبالتحديد في المكان الذي يعلن فيه علم الطبيعة الحديث عن نظام كبير متشاكل موحَّد للوجود...

... وسيتأتّى لنا أن نتعلم من غوته أبداً أن لا نترك الوسائل الأخرى كلها تتضاءل وتفنى من أجل أداة واحدة، ألا وهي التحليل العقلاني، وسنتعلم منه أن الأهم من ذلك هو أن نستحوذ على الواقع بكل ما لدينا من أدوات وأجهزة ووسائل وأن نطمئن إلى أن هذا الواقع يعكس ما هو جوهري أيضاً، أي "الواحد الأحد والخير والحق".

ولنأمل بأن يفلح المستقبل في هذا خير مما أفلح عصرنا وخير مما أفلح الجيل الذي أنتمي أنا إليه.

[1] كارل ياسبرز (1883–1969) فيلسوف ألماني وجودي. وهو من أوائل الذين طلعوا على الملأ بمؤلفات ذات اتجاه وجودي. مارس في السنوات الأولى الطب النفساني وألف كتاباً بعنوان علم نفس النظرات العالمية، ثم اتجه إلى الفلسفة وألف كتاباً بعنوان الفلسفة (1932) في ثلاثة مجلدات ناهيك عن مؤلفاته الأخرى العديدة. يكتب بلغة سهلة تنم على موهبة عالية وذوق رفيع في التحليل الممتاز. (المترجم)

[2] كارل فريديريش تسيلتر (1758–1832) من مدينة برلين. كان موسيقياً وصديقاً حميماً لغوته الشيخ. لحن الكثير من شعر غوته الغنائي كما أنه كان مرجع غوته في المسائل الموسيقية. (م)

[3] مسرحية فاوست، الجزء الأول، مشهد "الليل"، الأبيات 668–671. وكان مفروضاً أن يرد المفتاح مزلاج القفل، في حين أراد فاوست أن يفتح بأجهزته العجيبة الباب المؤدي إلى عالم الغيب ومغاليق الطبيعة.

[4] إشارة إلى الفرنسي ميشيل دو نوتردام (1503–1566). كان طبيبا جراحا وعالما في الفلك والأرصاد الجوية وكان يمارس التنبؤ. كتب في عام 1555 تنبؤاته شعراً فكانت محط الاهتمام. ومع أن المصادر لا تشير إلى أن فاوست التاريخي كان قد وقع على كتاب نوستراداموس، فليس بمستبعد أن يكون فاوست قد حصل على مخطوط بيد المؤلف نفسه. ويزج غوته باسم نوستراداموس الرنان في المسرحية (420–421) مستخدماً إياه رمزاً لمنجِّمين خياليين. (م)

[5] فيليمون وباوكيس، هما العجوزان، الزوج والزوجة، اللذان يعيشان في كوخهما على الشاطىء. ومن هناك يطل المرء على الأراضي الجديدة التي استصلحها فاوست. فهي صورة فردوسية، على حين يقوم قصر فاوست في الجوار. أما فاوست فإنه يريد أن يقتني الكوخ لأنه يستطيع أن يلقي نظرة شاملة على أملاكه. على أن العجوزين، لاسيما الزوجة باوكيس، يريدان البقاء حيث هما ويرفضان التخلي عن المكان لقاء مسكن جديد يعرضه فاوست عليهما، ويكلف فاوست الشيطان (ميفيستو) بتدبير الأمر فيوعز هذا إلى ثلاثة رجال أشداء بالمضي إلى العجوزين لترحيلهما عن المكان. على أن المشهد ينتهي بحرق الكوخ والعجوزين وقتل ضيفهما الذي حاول الدفاع عن الكوخ. ويحزن فاوست لما حل بالشيخين ويزجر الشيطان على فعلته الشنعاء. (م)

[6] ألدوس هكسلي (1894–1963) كاتب إنكليزي تتسم كتاباته بالسخرية اللاذعة والطابع الأخلاقي. فهو يعري عالم الشهوات والمتع المزري بغية الإقناع بأن الأهم هو التحرر من قيود الذات لتحقيق الخلاص من الأهواء والشهوات والتحرر من الذات هو تجاوز هذه الذات. من مؤلفاته: عالم جديد جَسور (1932)، يجب أن يكون للزمن نهاية (1945)، فضلاً عن مقالاتها ومنها: الأدب والعلوم (1963). (م)

[7] فرانز شوبيرت (1797–1828) مؤلف موسيقي نمساوي. لحن الكثير من القصائد التي نظمها كلوبشتوك وغوته وغيرهما. وألف هو نفسه أكثر من ستمائة أغنية، من بينها مجموعة الأغاني "الطحانة الجميلة" و"رحلة الشتاء" ثم "أنشودة البجع"، فضلاً عن مؤلفاته الموسيقية الرائدة الأخرى في مجال السمفونية.

FAUSTUS GOETHE

الصراع الأبدي بين الخير والشر

تعددت القراءات والتعاليق المقاربة لهذا المتن الملحمي الشهير، في مختلف اللغات والألسن، حتى استحالت إلى ركام من الصحائف والكتب يكبو عندها العد والإحصاء! واني إذ أستحضر في هذه السطور هذا المتن الفريد، لا أستهدف بذلك تلخيص رائعة من روائع الأدب، ولا تشويقك إلى قراءتها فحسب، ولا استعادة تعليق من هذه التعاليق الكثيرة، بل أريد أن أمزج في هذه القراءة بين مطلبين: أحدهما: تلخيص اللحظات الأساسية لهذا المتن الملحمي؛ حيث لا يسمح المقام بالايغال في تفاصيله. وثانيهما: التأمل فيه من داخل فضاء الفكر والثقافة الأوروبية وإشكالاتها في زمن الحداثة والأنوار. وسنقف بشكل خاص عند المقارنة بين غوته وكانط. من المعلوم أن فاوست كان في الأصل شخصية من شخصيات التراث الشعبي الألماني، شخصية نسجت حولها أساطير وحكايات عجائبية تداولتها الألسن، ثم نشرت في كتاب مجهول المؤلف ظهر بألمانيا سنة 1587.

د. الطيب بوعزة

لكن ثمة دراسات عدّة تذهب إلى أن فاوست هذا ليس شخصية متخيلة، بل هو شخص حقيقي عاش بين 1480 و1540. إلا أنه ليس بذي قيمة في تقديري الإيغال في قراءة هذه الأبحاث المتنازعة حول حقيقة هذه الشخصية، فليس بذي أهمية الحرص على الإجابة عن سؤال: هل كان ثمة وجود واقعي لشخص فاوست أم أنه مجرد نتاج للمخيل الاجتماعي الولوع بابتداع الشخوص العجائبية؟ فهو سؤال لا أهمية له؛ لأننا نرى أن «فاوست» غوته (1749/1832) أكبر من أن يختزل في فرد! إنه تعبير عن العقل والوجدان الأوروبي. وهذا الشخص المعنوي (أي العقل والوجدان الأوروبي) الذي تجسده شخصية فاوست، هو ما ينبغي الاهتمام به، وليس التنقيب في دفتر المواليد والوفيات لتحديد فرد آدمي من بني الألمان كان يأكل ويمشي في الأسواق عند نهاية القرن الـ15 وبداية الـ16.

إذن لقد كانت شخصية فاوست زمن غوته أسطورة من أساطير الثقافة الشعبية المتناقلة على الألسن والشفاه، أقصد أنها كانت مجرد حكاية ملقاة على قارعة الطريق، فالتقطها غوته ليعيد بناءها وتضمينها أبعادا دلالية وفلسفية بأسلوب فني بارع جذاب، حتى أصبحت تقترن باسمه وتتماهى مع شخصه، إلى درجة أن مجرد ذكر فاوست أصبح يحيل مباشرة إلى غوته، رغم أن هذه الشخصية كان لها قبله حظ مع الأدباء والكتاب؛ إذ حولها المسرحي الإنكليزي مارلوي سنة 1588 إلى نص مسرحي، كما أن الأديب الألماني ليسنغ (1729/1781) كان قد أصدر رواية بعنوان فاوست حوالي 1759. غير أن هذين العملين لم يُكتب لهما من الشهرة والذيوع ما كتب لنص فاوست.

ونتساءل: ما اللحظات الأساسية لهذا المتن الملحمي؟ وما دلالته في سياق صيرورة تطور الثقافة الأوروبية؟

تبدأ القصة بحوار بين الله والشيطان بشأن موضوع إخلاص الإنسان وحبه لله وامتثاله لأوامره واجتنابه لنواهيه، وينتهي الحوار إلى أن يراهن الشيطان –بغروره المعهود– على إغواء أتقى الناس وأفضل العلماء.. ويمنحه الله حق التجربة. وينزل الشيطان إلى الدكتور فاوست (الذي كان أعلم أهل الأرض وقتئذ)، وإذا بهذا النزول يصادف لحظة من لحظات الضعف البشري، فوجده قد يئس من العلم وسبله الإدراكية المحدودة، كما وجد شعوره الديني قد تخلخل واضطرب، ففقد وجدانه النفسي الراحة والطمأنينة. هنا يلقى الشيطان فاوست وهو في لحظة قلق وبحث عن سبيل ثالث ستكون إفلاسا للشيطان وعجزا له في الرهان، فيعود فاوست إلى الله.

ما الدلالة الكبرى الكامنة في نص غوته؟ يمكن أن نرى في متن فاوست تجسيدا للصراع الوجودي بين الخير والشر، وطرحا لإشكال المعرفة، وتأكيدا على محدودية القدرات الفكرية البشرية أمام الطموح الكبير الذي يسكن هذا الإنسان، أي الطموح إلى امتلاك السيادة على الطبيعة، وتحقيق رغبات الذات وإسعادها. إنها باختصار القضايا الكبرى التي تسم الوجود الإنساني في كل لحظات تاريخه. لكن أسلوب معالجة هذه القضايا كان متناسبا مع اللحظة الزمنية التي كُتب فيها النص، أي القرن الـ18. فلو عدنا قليلا إلى الماضي سنلاحظ أن القصد من المعرفة كان في القرن الـ17، سواء مع ديكارت أو فرنسيس بيكون، هو السيطرة على الطبيعة. وهذه السيادة على الكينونة الطبيعية كانت المقصد ذاته الذي عبرت عنه شخصية فاوست. لكن الفارق هو أن الوعي الأوروبي في الزمن الديكارتي والبيكوني كان واثقا في قدرة العقل على إنجاز هذه السيادة، وذلك سواء بالارتكاز على المبادئ الفطرية البدهية وتشغيل المنهج الرياضي (ديكارت)، أو بالثورة على المنطق المدرسي الأرسطي وبناء أورغانون استقرائي (بيكون). لكن بعد زوال القرن الـ17 قرن الديكارتية والعقلانية الواثقة، أخذ الوعي الأوروبي يشعر بمحدودية إمكانية العقل، فدخلت الحداثة الأوروبية في القرن الـ18 في عصر الإرهاص بالرومانسية الناقدة لنمط العقلنة، والباحثة عن أساليب وطرائق أخرى في الإدراك غير طريقة العقل وأسلوبه. هذا القلق والشك في القدرة العقلية هما ما نجد غوته يشخصهما في مسرحيته الملحمية. فمنذ اللحظة الأولى يقف فاوست أمام العقل والعلم وقفة نقدية يتحسر فيها على محدوديتهما وعجزهما، طامحا إلى إيجاد سبيل آخر مغاير. فالعلم فشل في إيجاد وسيلة لإدامة الصحة والشباب، وعجز عن الكشف عن أسلوب تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، وعجز عن تمليك الإنسان السيادة الكاملة على الطبيعة، وفشل في... وفي...

ما أكثر إخفاقات العلم والعقل؟

لقد كان القرن الـ18 قرن مناهضة الكلاسيكية ونزوعها العقلاني الصارم، وحرصا على التأسيس لتوجه فني جديد يعلي من شأن العاطفة والقوى الوجدانية اللاعقلية، فبلور من ثَمَّ الأرضية الملائمة لانبثاق النزعة الرومانسية. لذا يمكن القول: ثمة ترابط نسيجي بين الفكرة الفلسفية العامة التي تشيع داخل متن غوته والجو الفكري العام الذي ساد القرن الـ18. فهل هي مجرد صدفة أن يظهر كانط بمشروع نقد العقل في القرن نفسه الذي سيكتب فيه غوته ملحمة «فاوست»؟

لقد كان المشروع الكانطي تعبيرا عن لحظة مراجعة نقدية للعقلانية لاستنزال العقل من عليائه الديكارتي، وتشخيص بنيته والكشف عن مقولاته وبيان حدوده. وفي المقابل كان غوته برائعته «فاوست» يعبر عن التوجه النقدي ذاته، لكن بأسلوب فني سردي.

إن القرن الـ18 كان لحظة حراك زلزلت منظومة القيم العقلانية والجمالية التي شيدتها ثقافة القرن الـ17، وخلخلت من تماسكها، فمهدت من ثَمَّ للثورة عليها. وهي الثورة التي سينجزها القرن الـ19 التي ستكون خاتمته إعلانا بميلاد ما بعد الحداثة.

http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

يـــــــوم انـــحـــنـــى
نابوليون أمام غوته

قال نابوليون بونابرت لمستشاره الاول تاليران، وقد انتصرت فرنسا على امم اوروبا وباتت تدق ابواب موسكو: اوروبا لا ترضيني! انني اتطلع الى اسيا وستكون اسطمبول محطتي التالية!

ملوك اوروبا وامراؤها دانوا لهذا الامبراطور الفرنسي الكورسيكي الاصل ومن عائلة كانت الايطالية لغتها الاولى. لكنه عندما مرّ بجيوشه في البلاد الالمانية، طلب من معاونيه ان يقف ليعرج على الاديب الالماني الكبير يوهان غوته المقيم في ولاية فايمار. كان نابليون قرأ رواية "آلام الفتى فرتر" لغوته وتأثر بها كسواه من الاوروبيين ولاقى شرفا كبيراً في مقابلة مؤلفها!

كانت جيوش الامبراطورية الفرنسية تحتل البلاد الالمانية بكاملها، لكن نابليون وقف متواضعاً وضعيفاً امام عظمة الثقافة المتجسدة في شخص غوته.

تحدد موعد الامبراطور مع غوته في بلدة أرفورت الالمانية، حيث كان نابوليون كعادته في الحملات العسكرية العديدة يتخذ لنفسه قاعة في مكان اختاره مساعدوه كي يمارس فيها سائر شؤونه، من تناول طعام الفطور، الى النوم ولقاء جنرالاته وتوقيع الوثائق واصدار الاوامر، بلوغا الى خوض الحوارات الفلسفية والثقافية.

ولم يكن غوته جاهلا بسيرة نابوليون بل تابع صعوده في السنوات الاخيرة من مجرد "ليوتنان" في الجيش الفرنسي الى امبراطور يسيطر على معظم القارة الاوروبية. ودوّن غوته في مذكراته ان لقاءه بنابوليون كان من اهم الاحداث في حياته، وكان معجبا بهذا العبقري الفرنسي. وفي المقابل كانت معلومات نابوليون عن الاديب والشاعر الالماني ضئيلة باستثناء مطالعته لرواية "رتر" ومعرفته ببعض الطرائف عن غوته التي طالعها هنا وهناك في صحف باريس.

ولكن الرجلين كانا صاحبي بصيرة ثاقبة، من النوع الذي يكتفي بالنظر في عيني الانسان لدقيقة ليعرفا كل شيء عنه. كان نابوليون مرة يتناول طعام الفطور وامامه طاولة ضخمة بيضاوية الشكل والى المائدة معاوناه تاليران ودارو، عندما فتح الباب. ورفع نابوليون ناظريه ليرى غوته واقفا هناك في شموخ، فترك فوطته سريعا ودعا الزائر الالماني للدخول، ومرت دقائق في صمت ثقيل ونابوليون يحدق الى غوته الجالس امامه في اعجاب. امامه رجل فاق الستين، هو الاكثر رفعة بين قومه، تحوطه هالة الجمال وفي قمة عطائه، ومن وجهه وعينيه يشع انسجام روحي علامة رضى الحكيم الفيلسوف. نابوليون الذي وقف مخاطباً جيشه امام ابي الهول في مصر قائلا: "٤٠ قرنا من الزمن تطل عليكم يا ابناء فرنسا"، لم يجد ما يقوله في حضرة غوته.

واخيرا فتح نابوليون فمه وقال في تأثر بالغ وهو ينظر الى مساعديه ويمسح فمه بالفوطة: "هذا انسان". Voilâ un homme

جمعت تفاصيل هذا اللقاء من سيرة هؤلاء الاربعة، لكنها تقف غير منظمة. بدأ نابوليون بتثمين رواية "فرتر" (التي يعتبرها غوته عملا هامشياً في بداية حياته مقارنة بـ"فاوست")، وعلق نابوليون: "لكني لم احب خاتمة الرواية!". واجاب غوته: "اصدق ما تقول يا سيدي. انك من النوع الذي يفضل الروايات التي لا نهاية لها!". وبلع نابوليون لعابه حيال هذا التهديد الفكري المبطن من غوته، وتابع مشيدا بالرواية ومنتقلا الى الاعمال الدرامية في فرنسا مظهراً انه مطلع كفاية على الفن التراجيدي وانه متعمق في الادب والشعر والمسرح. وبعد نصف ساعة من حديث طغى عليه كلام الامبراطور الذي صمت قليلا وطرح على ضيفه اسئلة عابرة كانه في حديث بين قائدين متساويي الاهمية: "هل تعجبك المعيشة هنا يا سيد غوته؟"

واجاب غوته: "جدا جدا!! واتمنى ان تكون الايام المقبلة مفيدة لبلدي".

نابوليون: "وهل شعبكم سعيد؟"

وشرح غوته الاوضاع المعيشية في المانيا وولاية سكسونيا تحديدا. ولم يكن نابوليون ليكترث بهذه التفاصيل بل كان يحاول ان يكسب صداقة غوته فلعل هذا الاخير سيفيده ويكتب عنه شيئا يخلده للتاريخ. وفكر نابوليون في امكان ان يكتب غوته سيرته الذاتية كقصة قيصر امبراطور الرومان. وهذا في نظر نابوليون انجاز عظيم يقدمه الى الشعب الفرنسي اعظم من اي معركة عسكرية خاضها وانتصر فيها.

وتطرق في خجل لهذا الموضوع سائلا غوته: "لماذا لا تكتب قصة "مصرع قيصر" في طريقة افضل واكثر قيمة مما كتبه فولتير؟ ربما سيكون اعظم عمل تكتبه في حياتك. وسيكون هدف السيرة ابراز اهمية قيصر وكيف كانت مشاريعه وافكاره ستؤدي اكبر خدمة للبشرية لو فسح له المجال والوقت لتنفيذها. تعال معي الى باريس! ارجوك ان تفعل ذلك! هناك ستجد كل ما تحتاج اليه من مواد وابحاث ومعلومات مما سيخصب خيالك المبدع".

واجاب غوته في لباقة: "لا شك عندي يا سيدي الامبراطور في ان عرضك سيسعدني كثيرا وانه عمل يستحق الجهد. لكني لست في موضع يسمح لي بالقبول".

وفكر نابوليون انه دفع الفكرة الى حدها الاقصى ولا يجب ان يضغط على غوته اكثر من ذلك، فهو كاتب ذكي وسيدرك فورا طابع المصلحة الشخصية الذي يتخذه عرض نابوليون الذي ازعجه ان غوته لم يطلب منه شيئا وانه فاق بأخلاقه وتعاليه سائر زعماء اوروبا او كبار القوم الذين التقاهم وكانوا دائما يتوسلون منصباً او مالا.

وشعر نابوليون بالوضاعة امام غوته الذي لم يتوسع في الكلام امامه عن ادبه وثقافته كأنه لا يهمه ان يبرز ويشع امام امبراطور اوروبا. فاتجه الحديث الى المسرح في فرنسا والاعمال التي يهتم بها نابوليون وعدد المسارح وحفظه لنصوص ومقاطع خالدة من اعمال مسرحية فرنسية.

ثم انصرف غوته من حضرة نابوليون تاركا اعمق الاثر في نفس القائد الفرنسي.

ايهما اعظم: المثقف الاديب المتواضع المنصرف عن متع الدنيا كالسلطة والمال، ام الامبراطور الذي شعر بضآلة روحه امام الفكر؟

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير
نزار عبد الستار

الاخراج الفني
مصطفى التميمي

التصحيح اللغوي
محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة
المدى
للاعلام والثقافة والفنون